سُبُل

مجلة دورية تصدر عن مؤسسة رواق

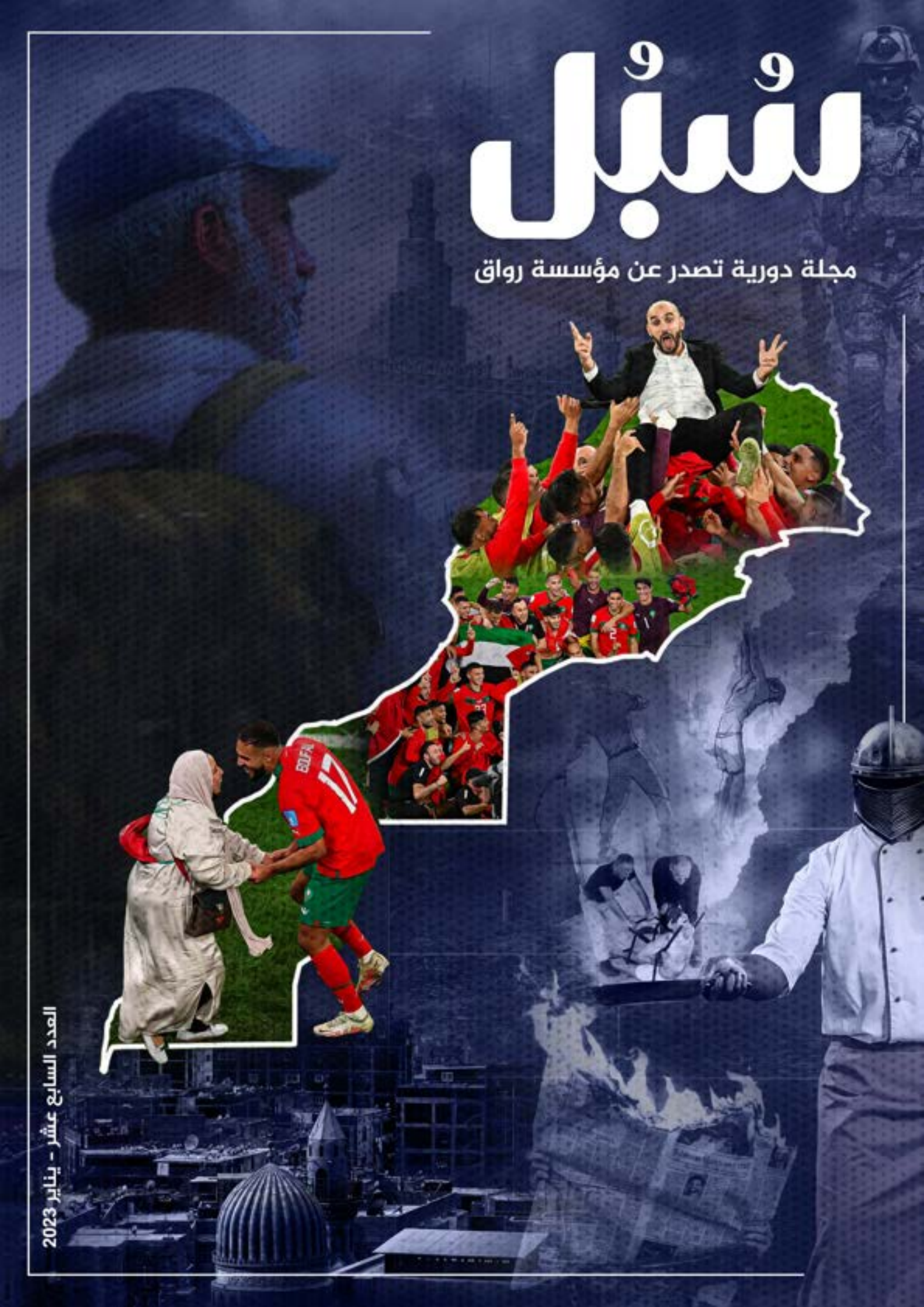

العدد السابع عشر - يناير 2023

المحتوى

4 افتتاحية العدد

6 تاريخ العالم الحديث كصعود للأغنياء
قراءة في نظرية بيتر جران
عبد الرحمن حسام

12 ماذا تريد روسيا من الشرق الأوسط؟
عبد الرحمن أحمد

20 الشرايين المنتفخة للقاهرة: بحثا عن فراغ غير مُسعف
إسلام السيد

27 أحمد بن طولون: مسجد يبحث عن هوية
معاذ لافي

34 دور وسائل الإعلام في صنع القرار السياسي
صبار محمد رضى

40 طعام السجون: تعذيب أكثر خفاءً
وجلّادون في صورة طهاة
شذا تيسير النجار

47 العم أسعد: فارس جال أصقاع البلاد
أحمد سيف النصر

59 كرة القدم والسياسة: هل يمكن فصلهما حقا؟
عمر إبراهيم

66 رسائل المنتخب المغربي في مونديال قطر
محمد طيفوري

كتاب العدد

أحمد سيف النصر

كاتب وصحفي
مهتم بالشؤون السياسية
وقضايا المجتمع والثقافة

عبد الرحمن حسام

دكتوراه في النظرية السياسية
والدراسات الحضارية من جامعة
ابن خلدون تركيا
مهتم بالتغيير السياسي
والاجتماعي

إسلام السيد

مدون يهتم بالشأن الثقافي
والفني

عمر إبراهيم

كاتب مصري
مهتم بمجال الرياضة وكرة القدم

شذا تيسير النجار

كاتبة متخصصة في الطعام
خريجة الأكاديمية الملكية
لفنون الطهي جامعة لاروش
سويسرا

محمد طيفوري

أكاديمي وكاتب مغربي

صبار محمد رضى

باحث في القانون العام والعلوم
السياسية
حاصل على ماجستير في
القانون العام

معاذ لافي

باحث أكاديمي في الآثار
الإسلامية
متخصص في الإرث الأندلسي
والاستشراق المعماري

عبد الرحمن أحمد

باحث في العلوم السياسية
بكالوريوس الهندسة المدنية

افتتاحية العدد

نحن أبناء بيئاتنا المجتمعية، ومع انغماسنا في تفاصيل الحياة، بما في ذلك العمل والدراسة والعائلة والأصدقاء والإعلام، يتشكل وعينا ونبني هوياتنا.

نعم، لسنا مجرّد إسفنج أصم يمتص ما تمليه علينا تلك البيئات، دون وعي أو تفكير أو تمحيص أو تحليل، لكن من الضروري أن نُقِرّ بأن تأثير البيئة من حولنا له أثر بالغ، يتعدى وعينا به في معظم الأحوال.

ورغم أنه من المستحيل أن ينفك المرء عن تلك المؤثرات، وأن الحياة مستحيلة إن ساءل الواحد فينا إن كان ما يؤمن به هو حقّا ناتجا عن اختيار حقيقي أو اتبّاع لموروث البيئات التي تنقل فيها، رغم هذا، فإن الوعي بذلك مهم، لأن الحق عزيز وطلبه يستلزم تجرّدًا حقيقيّا.

مساءلة المسلّمات التي انبنت في وعينا يومًا بعد يوم دون وعي منا يحصل ما إن تعرض الواحد فينا لواقع مختلف أو فكر مناقض أو ممارسة متمايزة.

توسيع الآفاق تتأتى بمعرفة الاختلاف، وطلب الحق تجرّد في فهم الاختلافات والتحيز إلى أقربها للصواب، وأدناها للجمال، وأرفعها أخلاقًا.

من هذا المنطلق، تحاول مجلتنا أن تبرز لقرائها قدر المستطاع أفكارًا متنوعة، ومواضيع مختلفة، ورؤىً متباينة، وسبلًا، علّ قارئنا يتمحص فيها باحثًا عن الحق، والخُلق، والجمال.

في هذا العدد يتناول **عبد الرحمن حسام بالشرح والتحليل نظرية مهمة للمؤرخ بيتر جران**، والذي يحاول قراءة التاريخ بوصفه صعودا للأغنياء، بدلا من النظرية الأكثر رواجا التي تنظر لتاريخ العالم الحديث بوصفه صعودا للغرب.

كما يأخذنا عبد الرحمن أحمد في جولة داخل عقل بوتين والنخب الحاكمة في

روسيا، محاولا فهم نظرتهم تجاه الشرق الأوسط، متتبعا الروابط التاريخية، ومفسرا موقف العداء من ثورات الربيع العربي، والفرص التي تسعى موسكو لاغتنامها من وراء الانسحاب الأميركي من المنطقة.

بعد ذلك، يطوف بنا إسلام السيد في زحام القاهرة، متسائلا عن الفشل المتكرر في استغلال الفراغ الكبير الموجود حولها، عبر تحليل عميق لنموذجين من المدن الجديدة، هما مدينة بدر ومدينة العاشر من رمضان، وهو ما يمنحنا فرصة لرؤية مستقبل العاصمة الجديدة التي يبنيها السيسي.

وفي القاهرة أيضا لكن قبل بضع مئات السنين، **يغوص بنا معاذ لافي في رحلة استكشافية لهوية مسجد أحمد ابن طولون، الذي كان ثالث المساجد المصرية**، بعد الجامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص، والذي كان لبنائه وترميمه في أزمنة مختلفة حكايات لا بد وأن تروى.

بعدها يكشف لنا صبار محمد جزءا من الدور الخفي الذي تلعبه وسائل الإعلام في حياتنا اليومية، عبر تأثيرها في صنع وتمرير القرارات السياسية، **قبل أن تخبرنا شذا النجار عن سر آخر، وهو كيف يمكن للطعام أن يكون أداة تعذيب في السجون**، في مقالها الذي يتناول سوسيولوجيا العقاب ومفهوم الجسد المسجون.

بعدها نعود للأسفار، **حيث يطير بنا أحمد سيف في رحلة إلى سراييفو حيث مغامرات الصحفي القدير والحكّاء الماهر أسعد طه**، الذي يمكن لحكايته أن تكون ملهمة وممتعة على حد سواء.

ويحكي لنا عمر إبراهيم حكايات الكرة والسياسة، من التنافس الطائفي في إسكتلندا، إلى الصراع السياسي في إسبانيا، وأخيرا حرب الأغنياء والفقراء في الأرجنتين.

وفي الختام، **يمتعنا محمد طيفوري بحديثه عن الدروس التي منحها منتخب المغرب في مونديال قطر**، والتي تمتد إلى خارج الملعب، حيث السياسة والاقتصاد والوحدة العربية والقضية الفلسطينية .

اقرأ وشاركنا أفكارك.

تاريخ العالم الحديث كصعود للأغنياء

قراءة في نظرية بيتر جران

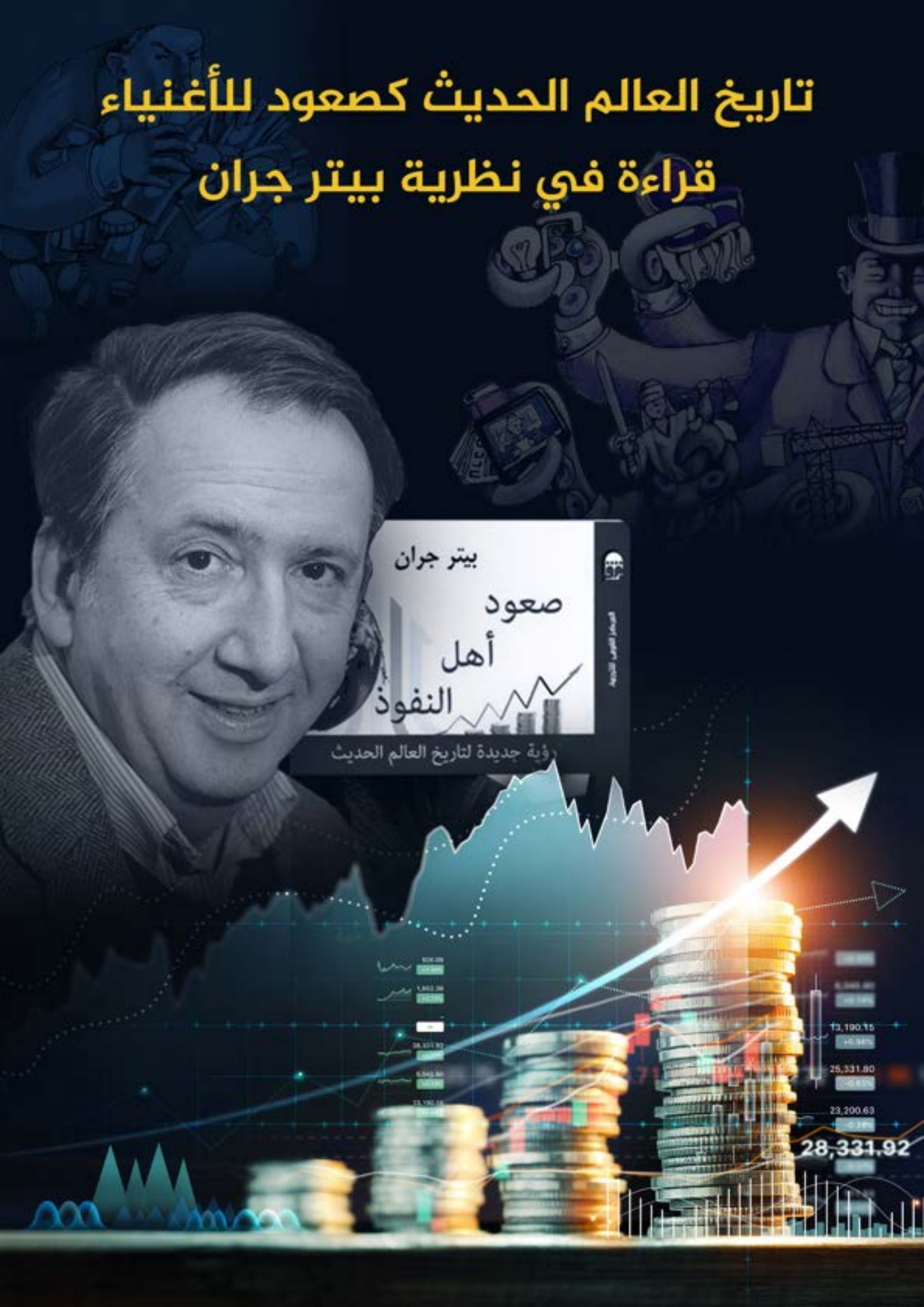

تاريخ العالم الحديث كصعود للأغنياء
قراءة في نظرية بيتر جران

عبد الرحمن حسام

دكتوراه في النظرية السياسية والدراسات الحضارية من جامعة ابن خلدون تركيا
مهتم بالتغيير السياسي والاجتماعي

في مقالته «تاريخ العالم الحديث كصعود للأغنياء: باراديم جديد»، يدعو المؤرخ القدير بيتر جران لتجاوز الرؤية التقليدية التي طورها هيجل، ومؤسسها ليوبولد ڤون رانكه، والتي تنظر لتاريخ العالم الحديث بوصفه صعودا للغرب.[1]

يصف جران هذا البارادايم القديم بأنه مغرق في تمركزه حول الغرب، ويدلل على قصور هذا البارادايم القديم بالتطورات التي شهدها التأريخ وعلم التاريخ في النصف قرن الماضي، ينطلق جران من أنه لا يمكن تجاهل العملية الإمبريالية داخل الغرب نفسه، ويتم هذا التجاهل بإحدى طريقتين: إما التركيز على سردية نخبة غربية همشت بقية العالم، وإما تجاهل سؤال السلطة والقوة ومناقشة المجتمعات الإنسانية المختلفة.

[1] Gran, Peter. «Modern World History as the Rise of the Rich: A New Paradigm.» History Compass ٥, no. ٣ (٢٠٠٧): ١٠٢٦-١٠٤٩.

يتناول جران تطورات حقل التاريخ العالمي كجزء من علم التاريخ من ثمانينيات القرن الماضي، وتجاوزها للرؤية الهيجلية من حيث تناولها لإفريقيا التي تجاهلها هيجل تماما ثم الصين وغيرها، ومن حيث نقدها لفكرة وجود مجتمعات خارج التاريخ مرت بزمن ذهبي ثم انحدرت، مما أفسح المجال لصعود الغرب الذي يصنع التاريخ وحده حصرا منذ الثورة الصناعية.

ومن أهم تلك التطورات نمو منهج التاريخ الاجتماعي، حيث يرفض التاريخ الاجتماعي من حيث التعريف والجوهر أفكار هيجل المتعلقة بالنخب والأزمنة الذهبية والانحدارات وصعود الغرب، إذ لا يمكن تفسير كل شيء يحدث في العالم بالنظر إلى سلوك النخب الأوروبية أو بردود الفعل على سلوكها في بقية العالم.

ولكن من جهة أخرى؛ لا يمكن أيضا قبول الولع بالمجتمع والتجارة وتجاهل مسألة السلطة والقوة كما فعلت مدرسة الحوليات وغيرها. ومن جهة ثالثة؛ لا يمكن تقويم الرؤية الهيجلية القاصرة بقبول ثم لوم الغرب على مشكلات العالم الحديث كما ينحو الماركسيون.

ويرى جران أن ثمة حل متوازن سيظهر بدلا من كل المنظورات السابقة، ورغم أهمية منهج التاريخ الاجتماعي يرى جران أنه في حاجة لمزيد من التطور، إذ إنه لم يتم توظيفه على نحو كافٍ في إطار حقل التاريخ العالمي.

تجاوز سردية صعود الغرب

ينتدب جران نفسه للنهوض بمهمة تجاوز سردية صعود الغرب، وبدلا منها يتبنى سردية صعود الأغنياء كمنظور يمكن من خلاله فهم تاريخ العالم الحديث، كما يسعى جران لتوضيح أن السلطة والقوة في يد الدوائر المهيمنة في العالم أجمع وليس في الغرب وحده، وأن ثمة نزاع بين هذه الدوائر المهيمنة داخل كل بلد.

إن التاريخ ليس عبارة فقط عن دول قومية تقع في مركز أو هامش السوق العالمي كما جادلت مدرسة الاقتصاد السياسي، فالتاريخ ينطوي كذلك على مجموعة من القوى المهيمنة والجماعات التي تعمل داخل وعبر هذه التقسيمة (المركز-الهامش) وفقا لمصالحها القومية والطبقية، ووفقا لمنطق هيمنتها كذلك.

وفي تحليله يوظف جران التحليل الطبقي لكنه يتجاوزه في الآن ذاته، إذ يدرسه في إطار التاريخ الاجتماعي

وتحليل الظواهر العابرة للقومية كذلك. إذا متى صعد الأغنياء؟ وكيف تجمعت العناصر المهيمنة معا في تاريخ العالم الحديث؟ يقدم جران فرضية مفادها أن ثمة تطور حدث من العلاقات البينية الثنائية (BILATERAL) للعلاقات البينية المتعددة (MULTILATERAL) بمرور الزمن، بدءا من القرن السادس عشر وحتى يومنا هذا. إن هذه العلاقات وتحليلها هي ما يحل محل رؤية هيجل التي تنظر للغرب باعتباره الفاعل المهيمن في التاريخ، إذ إن صعود هذا العالم المتعدد العلاقات يعني عمليا التطور المستمر لمجموعة من العلاقات السياسية والاقتصادية المعقدة والبينية بين الدول والعناصر المهيمنة. إن هذا التطور يتعدى بشكل أساسي إرادة أية قومية أو دولة معينة، وهو تطور متجذر في المصلحة الذاتية لجماعة العناصر المهنية تلك أكثر منه في إقليم جغرافي محدد، لذا يركز جران في سرديته التاريخية على مرحلتين أساسيتين: تمتد الأولى من 1550 حتى 1850، والثانية من 1850 حتى يومنا هذا، وقد شهدت المرحلة الأولى نموا متزايدا للعلاقات البينية الثنائية في العالم كله، أما المرحلة الثانية فقد شهدت تطورا أعمق وأبعد، وهو ما يسميه جران بالعلاقات البينية المتعددة (MULTILATERALISM). وفي إطار هذه الأحداث يرسم جران صورة لتاريخ العالم كصعود للأغنياء، ويوضح بالتفصيل كيف تترابط الجماعات المهيمنة عبر العالم وكيف تهدد الحركات المضادة لهيمنة الأغنياء.

الرأسمالية ومراكمة الفائض

نحيا اليوم في عالم يتسم بنمط إنتاج رأسمالي مختلف عن النمط الإنتاجي الذي كان سائدا منذ ألف عام والذي كان يعتمد على الجزية (TRIBUTARY)، وقد وُلد العصر الذي نعيش فيه منذ 500 سنة وبلغ أشده منذ قرن ونصف تقريبا مع صعود الدولة القومية الرأسمالية.

ومنذ قرن تقريبا بدأ عصرنا الرأسمالي في الدخول في مرحلة أزمة إبان الثورة الروسية، لقد نجا العصر الرأسمالي من هذه الأزمة وظل مستمرا حتى يومنا هذا، ويعود هذا الاستمرار لأسباب عديدة منها: عدم انهيار البيئة حول العالم حتى اليوم، والضعف التنظيمي للقوى المعارضة، وتطور العلاقة التضادية والتآزرية بين الطبقات المهيمنة عبر العالم، وقد حمى هذا التعاضد والتآزر

بين تلك الطبقات المهيمنة من التحديات الاجتماعية والسياسية والبيئية.

وبعد قرن من الآن يتوقع جران أنه سيكون على تلك الطبقات مواجهة هذه التحديات المتصاعدة ضدها، كما يرى الكثيرون حول العالم أننا سنشهد صعودا للاشتراكية بناء على هذا.

إن هيمنة سردية صعود الغرب على حقل التاريخ العالمي جعل منهج التاريخ الاجتماعي متكيفا معها بدلا من العكس، ويأسى جران لذلك، إذ إنه من دون التاريخ الاجتماعي فإن التاريخ العالمي يضخم ويبالغ في تقدير قوة أي من أو كل الشعوب في الدولة الغربية، بينما يقلل من قوة النخب الحاكمة في العالم الثالث ومن أهمية الديناميات التي تتفاعل هذه النخب في إطارها.

لذلك وبرغم كل التطورات التي ألهمها منهج التاريخ الاجتماعي، فإن ومنذ الثورة الصناعية تعتبر النخب الغربية الذكورية هي الوحيدة المهمة والمؤثرة، وأن كل ما يحدث في العالم يتم دراسته باعتباره مجرد تفاعلات مع سلوكيات تلك النخب الغربية الذكورية.

كان عام 1550 نقطة فاصلة في التاريخ العالمي، يبدو ذلك واضحا من منظور التحليل الاجتماعي-التاريخي لمولد النمط الرأسمالي للإنتاج الذي ينظر لهذه الظاهرة باعتبارها ظاهرة مجتمعية وقومية

> ينتدب جران نفسه للنهوض بمهمة تجاوز سردية صعود الغرب، وبدلا منها يتبنى سردية صعود الأغنياء كمنظور يمكن من خلاله فهم تاريخ العالم الحديث، كما يسعى جران لتوضيح أن السلطة والقوة في يد الدوائر المهيمنة في العالم أجمع وليس في الغرب وحده، وأن ثمة نزاع بين هذه الدوائر المهيمنة داخل كل بلد.

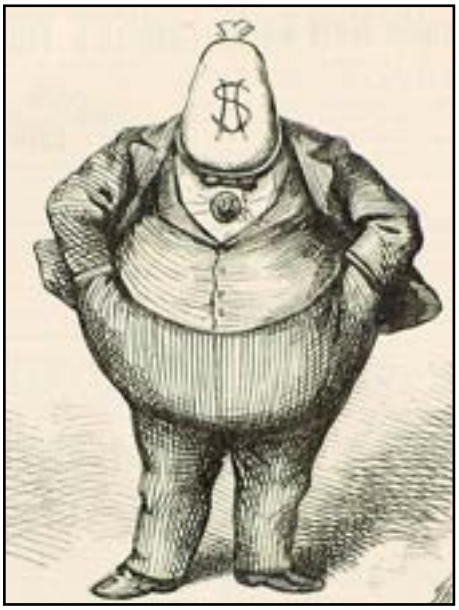

وعالمية في ذات الوقت، وإن هذا التحليل يتباين مع الأنماط المألوفة للتأريخ وفقا للمدرسة الليبرالية والماركسية.

ثمة خمسة أبعاد لهذا التحليل يتناولها جران بالتفصيل: صعود استراتيجية التراكم الرأسمالي لدى النخب الحاكمة عبر العالم كجزء من سعيها للسلطة، استراتيجية العديد من النخب الحاكمة الرامية لإعادة هيكلة المجتمع كي تكون بشكل متزايد جزءا من السوق الغربي أساسا، القوة التي منحها نمط الإنتاج الرأسمالي لبريطانيا مع تطوره وتطور السوق، الاستهلاكية الاستراتيجية محليا ودوليا، أبرز محطات هذا التحول، وتفاعل هذه الأبعاد المتعددة الذي أنتج العالم الحديث.

إن استراتيجية التراكم ظاهرة وحدت لدى عدد متزايد من العناصر المهيمنة في العالم منذ القرن السادس عشر فصاعدا، ولقد شهدت الرأسمالية الحديثة والتاريخ الحديث توجها أحاديا جديدا لدى العناصر المهيمنة لمراكمة الفائض، وقد أصبح هذا الفائض اليوم أداة يتم توظيفها في إطار الوصول إلى مزيد من السلطة والقوة بدلا من وظيفته التقليدية التي كانت تنحصر في الحصول على مزيد من الترف.

يتجلى هذا الدافع المذكور أحيانا في الاتجاه ناحية تحول العمل إلى طبيعة بروليتارية (PROLETARIANIZATION OF LABOR)، وأحيانا أخرى في استخدام تكنولوجيا جديدة، وأحيانا في المغامرات والنهب الإمبريالي.

كان العائد من كل ذلك مجزيا، لكنه حمل معه أخطارا وتكاليف أكبر والتي كانت جزءا من كل ممارسة، ونتيجة لذلك تم توجيه الإنفاق المتزايد لإنجلترا والدول الغنية الأخرى لضمان استقرار وضع الحكام في بقية العالم.

لم تكن هذه العملية بسيطة التكاليف، لكنها كانت ضرورية بلا ريب لضمان استمرار منظومة النهب، وقد أتت تكاليف تقوية الحكام، بالأسلحة أو الرشاوى أو قروض التنمية بثمارها، لذلك ليس من المستغرب أنه منذ بداية التاريخ الحديث وانطلاقا من الضرورة الوجودية ظهرت الترتيبات التعاضدية اللازمة لحصاد تلك الثمار على نحو كفء، وكنتيجة لهذه الترتيبات التعاضدية كانت مكاسب هؤلاء الحكام تأتي دوما على حساب شعوبهم.

خاتمة

إن سردية صعود الأغنياء لم يتم بحثها على نحو كافٍ، خاصة مع كونها بالغة التعقيد والاتساع، ويمكن فهم جهد جران في إطار مواجهة مشكلة المركزية الأوروبية في كتابة التاريخ العالمي.

إن المشكلة في نظر جران تكمن في سيادة نموذج صعود الغرب، والحل لديه في تبني نموذج بديل هو نموذج صعود الأغنياء، وتكمن شرعية هذا البديل في تهافت النموذج الهيجلي التقليدي الذي يستديم رؤية تعظم من الغربيين ودورهم على حساب كل البشر الآخرين، كما تكمن في تجاهل النماذج السائدة لسؤال من الذي يملك وكان يملك القوة والسلطة في العالم.

ماذا تريد روسيا من الشرق الأوسط ؟

ماذا تريد روسيا من الشرق الأوسط؟

عبد الرحمن أحمد

باحث في العلوم السياسية
بكالوريوس الهندسة المدنية

في كتاب «ما الذي تتطلع روسيا للوصول إليه في الشرق الأوسط؟» المنشور باللغة الإنجليزية عام 2018، يسعى الباحث للإجابة على هذا السؤال الرئيسي عنوان الكتاب، بالإضافة لمجموعة من الأسئلة الأخرى حول تأثير تدخل روسيا في دول عديدة من المنطقة.

وما إذا كان لدى موسكو استراتيجية للمنطقة تسعى لتحقيقها، وكيف يؤثر النشاط الروسي في الشرق الأوسط على بقية العالم بداية من أوروبا، وما هو التوازن والانسجام بين روسيا كمنافس للولايات المتحدة في الشرق الأوسط وكشريك في الحرب على المنظمات الإسلامية في نفس الوقت، علاوة على أسئلة فرعية أخرى.

ينطلق الباحث من اعتبار الشرق الأوسط نموذجا جيدا لقياس التغيرات في لعبة القوة داخل النظام الدولي في القرن الحالي، وعالما مصغرا للتطورات الدولية، فبعد الهيمنة الأمريكية الأحادية على العالم في وضع غير مسبوق تاريخيا لدولة ما، والتي وصلت لذروتها باحتلال العراق، جاءت عدة تطورات، بدءا من الأزمة المالية العالمية عام 2008 إلي الأزمة السورية مرورا بالربيع العربي لتنهي هذا الوضع الفريد وتبشر بنمط معتاد ومألوف، حيث العديد من الدول الكبيرة غير المتساوية في الحجم والقوة تتنافس من أجل التأثير والنفوذ ومن أجل فرض مفاهيمها في النظام الدولي.

بعد أن أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها الغربيون اليوم ضجرين وبشكل تدريجي غير عابئين بالمنطقة، وهو ما أفقدهم المبادرة الاستراتيجية والتوجه، وبينما الصين الدولة الصاعدة اقتصاديا لم تسع لأربع عقود مضت إلى الانغماس في مياه الجغرافيا السياسية العالمية.

وكذلك الأمر بالنسبة للهند القوة العظمى الناشئة والتي كانت أبعد من موقف الصين، كانت روسيا لاعبا رئيسيا لافتا للنظر وعائدا غير متوقع وبحيوية للعبة العالمية، وهي الغائبة فعليا لربع قرن عن المنطقة والعالم.

وما أن أحبطت الهيمنة الأمريكية الأحادية على العالم خلال حرب أوكرانيا 2014، فرضت أمرا واقعا على الولايات المتحدة من احتكارها القوة عالميا بالتدخل العسكري في سوريا لدعم النظام السوري الآيل للسقوط في عام 2015 فغيرت بذلك التدخل النسق الجيوسياسي في المنطقة.

صلة روسيا بالشرق الأوسط

تعود روابط روسيا بشرق البحر المتوسط تاريخيا إلى ألف عام مضت، عندما داهم أمراء كييف القسطنطينية في العصور الوسطى من حين لآخر، وقد حكم توجهاتهم في تلك الحقب بداية من القرن السابع عشر عاملين رئيسيين، أحدهما؛ كان رغبة الروس الدائمة في الوصول إلي البحار والمياه الدافئة ومن أجل ذلك خاضوا الحروب مع العثمانيين وغيرهم.

والثاني؛ كان العامل الديني، بعد أن حازوا ميراث القسطنطينية إثر سقوطها بيد العثمانيين، وقد حصل الروس على الحق في حماية المسيحيين الأرثوذكس في الإمبراطورية العثمانية عام 1774، وخاضوا الحروب من أجل هذا الدافع الذي اختلط بأطماعهم الإمبريالية أو كان غطاءً لها.

ومع ضعف العثمانيين تقاتل الأوروبيون وروسيا حول الإرث العثماني، وسرا في عام 1915 اتفق الروس والبريطانيون والفرنسيون على تقسيم الإرث، فكان نصيب المضايق والقسطنطينية وجنوب غرب الأراضي الأرمينية وجزء من شمال كردستان للروس.

وخلال تلك الحقب لم تكن البلاد العربية داخل الطموحات الجيوسياسية الروسية باستثناء الأرض المقدسة فلسطين وهو ما تغير بعد نجاح الثورة البلشفية عام 1917 حيث كانت الأيديولوجية الشيوعية عاملا جديدا مؤثرا في السياسة الخارجية الروسية. كانت الثورة البلشفية تعني القطع مع أفكار وممارسات السياسة الخارجية السابقة، ونبذ السوفيت المعاهدات والاتفاقيات المعقودة من قبل القياصرة، ونادوا المسلمين في الشرق بالانضمام إليهم في الكفاح ضد الإمبريالية الغربية، وتوجهوا لدعم الأحزاب الشيوعية في الشرق لتقويض الاستعمار الأوروبي، ورحبوا بجمهورية كمال أتاتورك، وأقاموا معاهدة معها عام 1921.

كانت موسكو تنظر لتركيا التي كانت مستقلة عن القوى الغربية كمنطقة عازلة جيوسياسية في البحر الأسود والقوقاز، لكن مع انتهاء الحرب العالمية الثانية أدت مطالب الروس من الترك منحهم امتيازات ونفوذ على المضايق بإلقاء أنقرة في أحضان الغرب لتبدأ أربعة عقود من الحرب الباردة على هذا الوضع، تركيا كحاجز للمد السوفيتي.

وكان أول دخول للجغرافيا السياسية في الشرق الأوسط بتأييد الدولة الصهيونية ودعمها في حرب 1948، وكان هدف ستالين هو تقويض الهيمنة البريطانية التي كانت ما تزال تسيطر على العديد من الدول العربية،

> **كان حدوث انقلاب عسكري في مصر عام 1952 والذي تسبب لاحقا في الإطاحة بالموالين للغرب نقطة تحول في علاقة الروس بالمنطقة، حيث بحث جمال عبد الناصر عن موالين له في مواجهة القوى الغربية، وهو ما فتح الباب للاتحاد السوفيتي ليكون لاعبا رئيسيا في الشرق الأوسط.**

ثم تحول الدعم لمصر ضد إسرائيل عندما خيبت إسرائيل آمال موسكو في الانحياز لها في الحرب الباردة.

كان حدوث انقلاب عسكري في مصر 1952 والذي تسبب لاحقا في الإطاحة بالموالين للغرب نقطة تحول في علاقة الروس بالمنطقة، حيث بحث جمال عبد الناصر عن موالين له في مواجهة القوى الغربية، وهو ما فتح الباب للاتحاد السوفيتي ليكون لاعبا رئيسيا في الشرق الأوسط.

وحاول السوفيت الاستفادة من الثورات السياسية في الدول العربية وجعل زعماءها حلفاء في المنافسة العالمية مع الرأسمالية، فقدموا لهم الدعم في مصر واليمن والعراق والجزائر خلال حقبة الحرب الباردة، ونما الوجود السوفيتي بوصول أنظمة يسارية

في بعض البلدان العربية، والتي عززت من تحالفها مع الاتحاد السوفيتي، كما دعم السوفيت القضية الفلسطينية وقدموا لها السلاح.

وفي نفس الوقت أبرمت الولايات المتحدة والقوى الغربية المعاهدات والتحالفات مع تركيا وإيران والعراق وباكستان فكانوا جزءا من النظام العالمي في مكافحة السوفيت، وبعد حرب أكتوبر 1973 حدثت انتكاسة للسوفيت في منافستها الإقليمية مع الولايات المتحدة ونفوذها في الشرق الأوسط بتوجه مصر نحو واشنطن وإقامة علاقات مع إسرائيل، لكن بقيت جبهة رفض التطبيع ممثلة في دمشق وطرابلس ومنظمة التحرير الفلسطينية ضد التصالح مع إسرائيل وفي صف موسكو تتلقى الدعم منها.

ثم كانت تطورات عديدة في الشرق الأوسط، بداية من الثورة الإيرانية وحرب الخليج وهزيمة السوفيت في أفغانستان التي أدت كلها لضعف النفوذ السوفيتي، ومع سقوطه انفصلت روسيا جغرافيا عن الشرق الأوسط بظهور عدة دول مستقلة بينها وبين المنطقة، كما تعرض أصدقاؤها في الشرق الأوسط للانهيار بعد ذلك.

في حقبة ما بعد الاتحاد السوفيتي تقاربت موسكو مع واشنطن في سياستها الخارجية، خاصة في ملف «مكافحة الإرهاب»، وعندما وقعت أحداث 11 سبتمبر عرضت روسيا على واشنطن الدعم، وكانت هذه خطوة استراتيجية كبرى، حيث لم يسبق أن تحالفت موسكو مع واشنطن في الشرق الأوسط بشكل وثيق، غير أن تلك السياسة الجديدة لم تمنحها نفوذا في المنطقة.

الربيع العربي والتدخل العسكري الروسي

من وجهة نظر روسيا، كان الربيع العربي جزءا من استراتيجية عامة لتعزيز الديمقراطية على النمط الغربي في الشرق الأوسط واستبدال الأنظمة الضعيفة، التي غالبها موالية للغرب، بتلك التي ستكون مؤيدة للغرب شرعيا وديمقراطيا.

وبالتالي توطيد بل وزيادة النفوذ الأمريكي والأوروبي مما سيكون له انعكاسا على جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، ويمكن أن يشعل «نقطة الضعف» الجيوسياسية لروسيا، وعززت تلك القراءة الاحتجاجات التي شهدتها أوكرانيا عامي 2013-2014، ولذلك عزمت موسكو على معارضة التغيير في الوطن العربي.

ثم عزز التوجه سببا آخر، وهو أن الإسلاميين كانوا الأكثر حظا والمستفيد الأكثر احتمالا من الأحداث في المنطقة، ورأت موسكو مع احتمال سقوط الأسد ووصول الإسلاميين للسلطة في سوريا عام 2015 خطرا داهما يتمثل في سيطرة الجهاديين على سوريا.

وهو الخطر الذي يمتد، في نظر بوتين، إلى آسيا الوسطى المجاورة مباشرة لروسيا، ويمتد أيضا لمسلمي روسيا البالغ عددهم نحو عشرين مليون نسمة، فكان التدخل في سوريا خطوة هجومية ووقائية بالنسبة للروس.

كان الهدف المباشر لروسيا هو إحباط هزيمة الأسد ومنع الجهاديين من روسيا والجمهوريات السوفيتية السابقة -التي يصل عددهم لنحو 7000 مقاتل- من العودة إلى أماكنهم الأصلية، لكن لم يكن هذا التدخل العسكري الروسي خاصا بسوريا فقط أو حتى الشرق الأوسط، بل كان هناك هدفا أكثر عالمية.

حيث يأتي التدخل بعد وقت قصير من بدء الأزمة الأوكرانية 2014، وسوريا كانت خطوة كبيرة ثانية من قبل موسكو ضد الولايات المتحدة التي تهيمن على النظام العالمي، وكانت المرة الأولى التي تتجاوز روسيا فيها حدود الاتحاد السوفيتي السابق، علاوة على ذلك؛ تصرفت روسيا لدعم الحكومة التي تعتبرها الولايات المتحدة غير شرعية، وهاجمت القوات التي سلحتها ودربتها وموّلتها الولايات المتحدة.

نتيجة لهذا التدخل؛ عادت روسيا لاعبا رئيسيا على المستوى الجيوسياسي وفاعلا عسكريا قادرا في الشرق الأوسط، حالت دون النتائج التي وجدتها خطيرة: إسقاط النظام في دمشق من قبل الإسلاميين أو نتيجة تدخل الولايات المتحدة، و فازت بحقوق القواعد الجوية والبحرية في سوريا، وكذلك تخلصت روسيا من احتكار الولايات المتحدة العمل السياسي والعسكري في الشرق الأوسط.

سلاح العلاقات الدبلوماسية والتجارية

حرصت روسيا بجانب تدخلها العسكري على النشاط الدبلوماسي وتمكنت من خلاله التعامل مع البلدان والكيانات والجماعات التي هي غالبا معادية لبعضها البعض، وذلك سعيا لتحقيق مصالحها وأيضا تجنبا لتجربتها السابقة في العالم الإسلامي.

مثلا في ملف السنة والشيعة ورغم أن تحالفاتها العسكرية جميعها مع الشيعة، حيث النظام العلوي في دمشق وإيران وحزب الله وحكومة الأغلبية الشيعية في العراق، تمكنت موسكو من تجنب الانقسام السني-الشيعي وذلك عن طريق تنمية علاقاتها مع مصر -الدولة السنية الأكبر في المنطقة- ومع دول الخليج وغيرهم.

وفي علاقتها مع تركيا؛ عندما أسقطت الطائرة الروسية من قبل أنقرة عام 2015 امتنعت موسكو عن الرد عسكريا، لكنها وضعت تركيا تحت ضغط اقتصادي وسياسي وإعلامي، واستخدمت الملف الكردي ضد أنقرة حيث استضافت الحزب الكردي المعادي لتركيا وسمحت له بإنشاء مكتب في العاصمة الروسية، ما دفع تركيا للرضوخ والاعتذار عن الحادث ومن ثم التوافق مع موسكو في كثير من الملفات، بما في ذلك سوريا.

في ملفات متناقضة أخرى استخدمت أداة الدبلوماسية، واستطاعت إدارة علاقات متوازنة مع الأطراف المختلفة، مثل القضية الفلسطينية أو العلاقات بين إسرائيل وسوريا، وإسرائيل وإيران، وتركيا وإيران، كما تمكنت

من التواصل مع الأطراف الليبية المتصارعة رغم انحيازها إلى جانب أحد الطرفين.

وفي العلاقات التجارية ورغم أن مصالح روسيا في الشرق الأوسط لا تزال إلى حد كبير جيوسياسية ومرتبطة بالأمن، إلا إنها بعد نهاية الحرب الباردة، كان هناك التوسع الواضح في التبادلات الاقتصادية.

وعلى عكس الاتحاد السوفيتي الذي ذهب إلى الخارج لإنفاق الأموال على مشاريع المساعدة الاقتصادية، مثل السد العالي أو مصنع حلوان للصلب في مصر أو سد الفرات في سوريا، اهتم الاتحاد الروسي في المقام الأول بجني الأموال في الخارج.

ومنذ عام 1991 نمت أهمية البعد الاقتصادي في العلاقات الخارجية لروسيا بشكل عام وهذا ينطبق أيضا على الشرق الأوسط، وهناك ملفات اقتصادية عديدة بين روسيا والشرق الأوسط يعد ملف الأسلحة أهمها، حيث إن روسيا أحد أكبر مصدري الأسلحة في العالم، وهي تحتل المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة، وتنظر تقليديا إلى الشرق الأوسط كسوق رئيسي لها في صناعتها الدفاعية.

ومصر على سبيل المثال اعتادت أن تكون عميل الأسلحة الرئيسي لموسكو بين عامي 1955 و1974، ومع وصول السيسي للسلطة 2014، توسعت العلاقات العسكرية بين البلدين بشكل كبير، حيث بدأ البلدان في عقد اجتماعات دفاعية مشتركة دورية.

ومع تعليق المساعدة العسكرية الأمريكية للقاهرة كعلامة على عدم موافقة واشنطن على الانقلاب العسكري عام 2013 تعززت العلاقة مع موسكو، اقترب البلدان من بعضهما البعض، خاصة فيما يتعلق بالصراعات في سوريا وليبيا، كما أقيمت أول مناورة بحرية مشتركة في البحر المتوسط 2016.

خاتمة

خلص الكتاب إلى أن روسيا ليس لديها استراتيجية كبرى للشرق الأوسط، لكن عودتها إلى المنطقة ذات أهمية استراتيجية واعتبارات دولية كبيرة، إنها ليست مجرد عودة إلى منطقة مهمة، ولكنها عودة إلى المشهد العالمي بعد خمس وعشرين عاما من الغياب.

وهذا الاختراق في السياسة الخارجية لروسيا كان له المساهمة في التغيير المستمر للنظام العالمي بعيدا عن هيمنة الولايات المتحدة، والعودة إلى نوع من توازن القوى بين العديد من اللاعبين الرئيسيين، بما في ذلك روسيا.

ختاما؛ نشير إلى أن واشنطن تسعى اليوم لتقويض هذا النفوذ المتحقق من قبل روسيا في المنطقة، إذ أعلن الرئيس الأمريكي بايدن في زيارته إلى السعودية أن الولايات المتحدة لن تترك فراغا في المنطقة لتملأه روسيا.

غير أن سعى الولايات المتحدة ليس هو السبب الوحيد لضعف الاختراق الروسي، فهناك أسباب عديدة، أهمها سياسات العنف والقوة التي اعتمدتها دون مشروع سياسي، وهو الأمر الذي لم يجعل لها قبول بين شعوب المنطقة، فضلا عن ضعف الأنظمة التي أقامت معها علاقات قوية، ما يعيد تلك الأنظمة مرة أخرى لتحالفها مع واشنطن، مثلما حدث مع مصر ودول الخليج، لكن يبقى هناك التدخل الروسي في سوريا، والذي بموجبه كسرت موسكو محاذير وقيود في النظام العالمي، وهو ما لم يتحقق منذ انتهاء الحرب الباردة.

دون مشروع سياسي، وهو الأمر الذي لم يجعل لها قبول بين شعوب المنطقة، فضلا عن ضعف الأنظمة التي أقامت معها علاقات قوية، ما يعيد تلك الأنظمة مرة أخرى لتحالفها مع واشنطن، مثلما حدث مع مصر ودول الخليج، لكن يبقى هناك التدخل الروسي في سوريا، والذي بموجبه كسرت موسكو محاذير وقيود في النظام العالمي، وهو ما لم يتحقق منذ انتهاء الحرب الباردة.

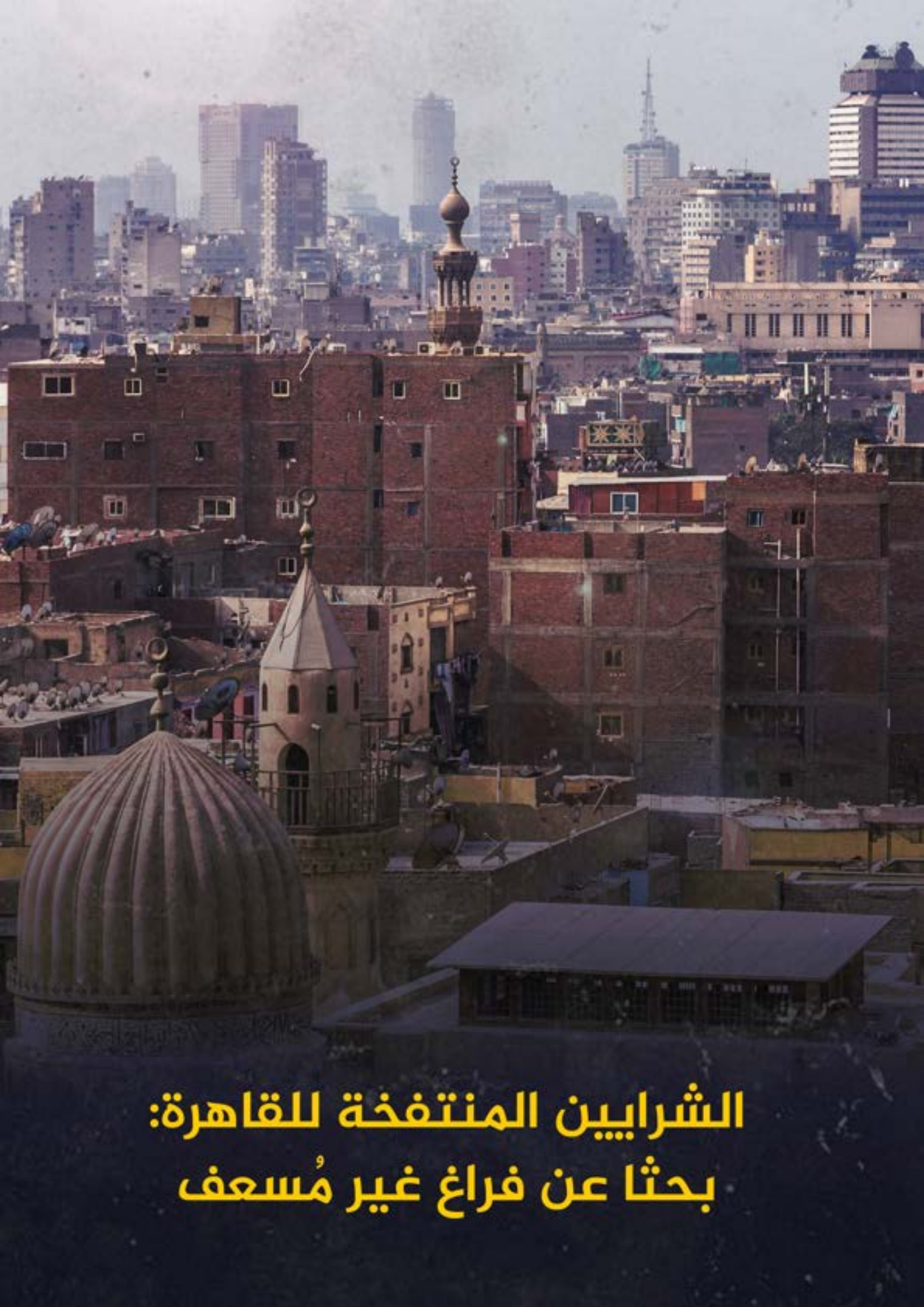

الشرايين المنتفخة للقاهرة:
بحثا عن فراغ غير مُسعف

الشرايين المنتفخة للقاهرة: بحثا عن فراغ غير مُسعف

إسلام السيد

مدون يهتم بالشأن الثقافي والفني

خلال السنوات الأربع الماضية، تظهر مساحات جدل واختلاف واسع حول مشكلات بناء وهدم المنازل في مصر، لاسيّما محافظة القاهرة، باعتبارها المدينة المركزية، الواجهة، لمشروع الدولة المصرية حاليا.

تتعدد أسباب قرارات الإزالة والشروع في تطبيقها سريعًا، على سبيل المثال؛ هناك إزالات تتم لأجل توسعات في الطرق، خاصة الطريق الدائري، وأخرى لأن المنازل الموجودة تتعارض مع مسار محورٍ جديد، مع تعويض أصحاب المنازل بمبالغ تقديرية، حسب مساحة المنزل وعدد الغرف، كما أن هناك حملة موسعة منذ سنتين لإزالة المنازل غير المرخصة، إذ بدأت محافظة الجيزة التشديد على قرارات الإزالة ومضاعفة عقوبات الأبنية غير مستوفية تراخيص البناء.

يتعارض انتشار المباني غير المرخّصة على جانبي القاهرة، وفي عمقها العشوائي، مع التوجه الحكومي الحالي لإعادة هيكلة المدينة من خلال شبكة طرق توسّع شرايينها.

توجه تقليل التكدّس ليس جديدا، بل هو مشروع طويل المدى، بدأ منذ فشل المشروع الناصري وصعود مركزية العاصمة والتوجه نحو خصخصة الاقتصاد خلال حكم السادات.

صعود مركزية القاهرة آنذاك، ملأها بهجرات داخلية ضخمة، بحثًا عن فرص عمل لم تتوفر في الأقاليم، ومع بداية ظهور التكدّس السكاني وفرض نفسه كأزمة يجب التعامل معها، بدأت بوادر تقليل التكدّس من خلال التطلع إلى الأفق الصحراوي الممتد على طريق مصر إسماعيلية الصحراوي.

سجّلت محافظات القاهرة الكبرى (القاهرة- الجيزة- القليوبية) أكثر من 25 مليون نسمة في منتصف 2022، بنسبة تتجاوز ربع إجمالي عدد سكّان مصر، يتم ذِكر التعداد الحالي، مع اعتبار أن توسيع شرايين القاهرة فكرة طالما شغلت مختلف الحكومات منذ مطلع السبعينيات وحتى الآن.

لماذا لم يسعفنا الفراغ لإنقاذ القاهرة؟

يمكننا قراءة حيثيات هذه الأزمة من خلال نموذجين: مدينة بدر ومدينة العاشر من رمضان، حيث تم إنشاء مدينة بدر لأجل تسكين محدودي الدخل، بينما أنشئت مدينة العاشر من رمضان لتكون مدينة صناعية تجذب المستثمرين.

نشأت مدينة بدر في 1982، طبقًا للقرار الوزاري 59\1979 تحت شعار الاستقرار الاجتماعي والرخاء الاقتصادي، وخلال هذه المرحلة ظهر احتياج كبير من مختلف فئات الطبقة المتوسطة لفرص عمل خارج الأقاليم، وانقسمت

> **صعود مركزية القاهرة ملأها بهجرات داخلية ضخمة، بحثًا عن فرص عمل لم تتوفر في الأقاليم، ومع بداية ظهور التكدّس السكاني وفرض نفسه كأزمة يجب التعامل معها، بدأت بوادر تقليل التكدّس من خلال التطلع إلى الأفق الصحراوي الممتد.**

دفعات الهجرة، بين فئة كبيرة تهاجر خارجيا إلى الخليج، وفئة باقية تختار الهجرة الداخلية إلى القاهرة، لأنها المدينة المحتمل وجود فرص عمل بها.

ومن ناحية أخرى؛ كانت تبعات حرب أكتوبر 1973 ما زالت قائمة بسبب توقف البناء لسنوات عديدة مشروع الاستقرار والرخاء، حيث خطى أولى خطواته من خلال مدينة بدر، لأنها مساحة بعيدة عن تكدّس العاصمة، أنشئت أولا لأجل محدودي الدخل، ووجودها يتيح فرصة معقولة لشغل الفراغ الصحراوي الممتد حتى أطراف القاهرة الجديدة.

في كتاب «نشتري كل شيء» الصادر عن دار المرايا، يتعرّض بحث «الحياة الشاغرة للمساكن الاقتصادية» للتحولات الاستثمارية للمساكن، ويتخذ مدينة بدر كنموذج لهذه التحولات.

خلقت التعاونية الذي أنشئت مدينة بدر من خلاله، تحوّلا سريعًا على يد شركات امتلاك وتدوير الأراضي المؤهلة للبناء، من خلال مباركة مبطّنة من نظام مبارك آنذاك، حيث تم تقنين بيع الأراضي السكنية من خلال نظام المزادات العلنية، فما حدث في مدينة بدر، هو عملية احتكار وخلق قوانين جانبية تتفق عليها شركات الاستثمار العقاري التي وضعت عينها على المدينة الناشئة.

خضعت عمليات البيع لنظام جهلته المؤسسة آنذاك عمدًا، حيث يتنافس صغار المستثمرين على أسعار متباينة، ووقتما يستقر سعر البيع على أحدهم، يستطيع نقل ملكيتها لشركة أخرى مع تحقيق نسبة ربح معقولة، وبالتبعية تتمركز أولوية التربّح في كل مراحل الإنشاء، استخلاص التراخيص وعملية الإنشاء، وأخيرًا؛ القدرة على التحكم في القوة الربحية للعقارات المبنيّة.

العاشر من رمضان:
الوقوف في منتصف التشكّل

نتج عن أولوية الاستثمار وتقديم التربّح، باعتباره حالة تسيّدت المدينة، عجز في قدرة محدودي الدخل على شراء العقارات المعروضة، ونتيجة لذلك ارتفاع قيمة الأراضي عن سعرها الأصلي ما يزيد على الضعف.

بسبب المزاج الاستثماري المنتشر في هيكلة أسس المدينة العقارية، تم تجهيل الحاجات الاستهلاكية الأساسية لمساكن الطبقة المتوسطة، بالإضافة إلى عمل بنى تحتية خدمية للمدينة، فتحولت مدينة بدر الآن إلى مادة استثمارية خصبة، بجوار مدن أخرى تخضع لنفس العملية، مدينتا الشروق والمستقبل كمثال، أملًا في الصعود إلى ميزة الانتقاء والخصوصية المجتمعية التي تتمتّع بها تجمعات سكنية أخرى، مثل مدينتي، والتي للمصادفة أنشئت كتجمّع سكني لمحدودي الدخل أيضًا.

طبقًا للقانون 249 لسنة 1979، تم العمل على إنشاء مدينة العاشر من رمضان، على أن تستقطب المدينة رؤوس أموال الاستثمار الخارجي من جهة، ومن جهة أخرى يتوفر بها فرص عمل، وتخلق حيّزا سكانيا جديدا.

يطالعنا الوضع الحالي للمدينة والنتاجات البيّنة من عدم الاتزان بين الجانبين الصناعي والسكني، إلى حالة التخبط والتجهيل التي تعرضت لها المدينة، كنموذج لأخواتها اللاتي خضن نفس التجربة.

جدير بالذكر هنا؛ أن مدينة بدر، يتم إعادة تطويرها وهيكلة بنيتها التحتيّة حاليًا، بسبب قربها من العاصمة الإدارية الجديدة، بينما بقية المدن الأخرى تحاول الصعود اقتصاديًا لخلق انتقائية سكنية لأجل صفوة الطبقة المتوسطة.

يتبين من خلال خمسة سنوات قضيتها طالبًا في مدينة العاشر من رمضان، أن المدينة تعاني من التداخل بين الصناعي والسكني، وهناك حالة تذمّر من التلوث المائي الحاصل بسبب تداخل خطوط الصرف الصحي والصناعي، حيث يتم من خلالهما معالجة المياه لأجل الزراعة، وينتج عن ذلك عجز في تحقيق مياه صالحة للريّ، ويؤثر ذلك التلوث على

المياه الجوفية التي تتم فلترتها وتستخدم في الحاجات الآدمية.

واحدة من الآفات الكبرى التي تسكن المدينة، ميوعة هامشها الإنتاجي، واعتمادها بشكل كبير على العمالة اليومية، القائمة على هيكل اقتصادي حر، وخلال سنوات الدراسة تعرضتُ لنماذج كثيرة في المدينة، منها طالب دراسات عليا يعمل وردية 12 ساعة يوميًا في محل بقالة، ومن خلاله فهمت أن مجموع المحلات الموجودة في المنطقة يمتلكها عدد قليل من التجّار، يعتمد كل مالك منهم على قوة عمالة ينتقيها جماعيًا من قُرى نائية في الصعيد، أو من قرى ريفية نائية.

ربما يتمتع مثل هؤلاء الشباب بمستوى مقبول من ناحية الإنتاج المادي الشهري، لكنهم في المقابل، يعملون في أعمال مختلفة، اليوم في مطعم شعبي، وغدًا في محل الأسماك المجاور، وفي يوم ثالث يقف في محل لبيع الدواجن، من الضروري أن يتقن القدرة على تسيير أعمال أي نشاط يمتلكه رب العمل.

بجوار العمالة المستدعاة من مناطق نائية في العمق الصعيدي والريفي المصري، والذين يعمل أغلبيتهم في أعمال ليست صناعية، يشتغل عدد كبير من الأفارقة المهاجرين إلى مصر في أعمال الإنشاء.

ترى في المدينة أجناسا مختلفة، من السودان وغينيا وتنزانيا والكونغو وغيرهم، تخضع دورة عملهم إلى نظام أشبه بحصار، يترأس عملهم أحد المقاولين، بينما عملية تسكينهم يتولاها سماسرة، هم ملّاك محلات المنتجات الاستهلاكية الذين ذكرناهم سابقا، الشقق المتاحة هي عبارة عن أكبر عدد متاح من مراتب للنوم، لا توجد غرف جماعية لأفراد، الشقّة من عتبتها وحتة آخر شبر فيها، مقسمة كأماكن نوم مخصصة للأفراد.

بالنسبة للسكان الذين لديهم أعمال خاصة أو وظائف بالمدينة، هم منقطعون بنسبة كبيرة عن أي احتياجات ضرورية، إذ إن المدينة تبعد عن أقرب مكان متكامل حوالي نصف ساعة بالسيارة، ومع حلول الساعة العاشرة كحد أقصى، تنقطع المواصلات العامة بها.

يعمل جهاز مدينة العاشر حاليا على تعزيزها بمزيد من مراكز الصحّة وطرق إمدادية بالمدن المجاورة، ضمن مشروعات إعادة هيكلة المدن منتصفية الإنشاء والتعمير، لكن شبح الاستثمار لا يغيب، حيث تتكدس المدينة بمشروعات استثمارية تحت بند «كومباوندات خاصة».

خاتمة

يحيلنا الوضع الحالي للنموذجين المذكورين إلى التساؤل حول مآلات هذه المدن، ربما نجد الإجابة في كتاب «اللا أمكنة: مدخل إلى أنثروبولوجيا الحداثة المفرطة» الصادر عن هيئة البحرين للثقافة والآثار، الذي يشير إلى أن المكان الذي لا يحتفظ بهوية ثابتة، نسيج علاقات وتفاعلات ورموز وملامح حضرية، فهو على مستوى التعريف التطوري المجتمعي، يصبح «لا مكان».

ذلك تحديدًا ما حدث لمدينتي العاشر من رمضان وبدر، كل واحدة منهما بدأت ضمن خطة إنشاء إيجابية، لكنها مع التحولات والتداخلات الاستثمارية، فقدت نسيج علاقاتها الحيوي، الذي تنتجه الطبقات الشرعية بالأساس، وكذلك فقدت ملامحها الإنشائية والحضرية، لأنها لم تعمل من الأساس على عدالة التوزيع وسبّقت فعل التربّح، حتى فقدت تعريفاتها المكانية.

أحـمد بن طـولـون:
مسجد يبحث عن هوية

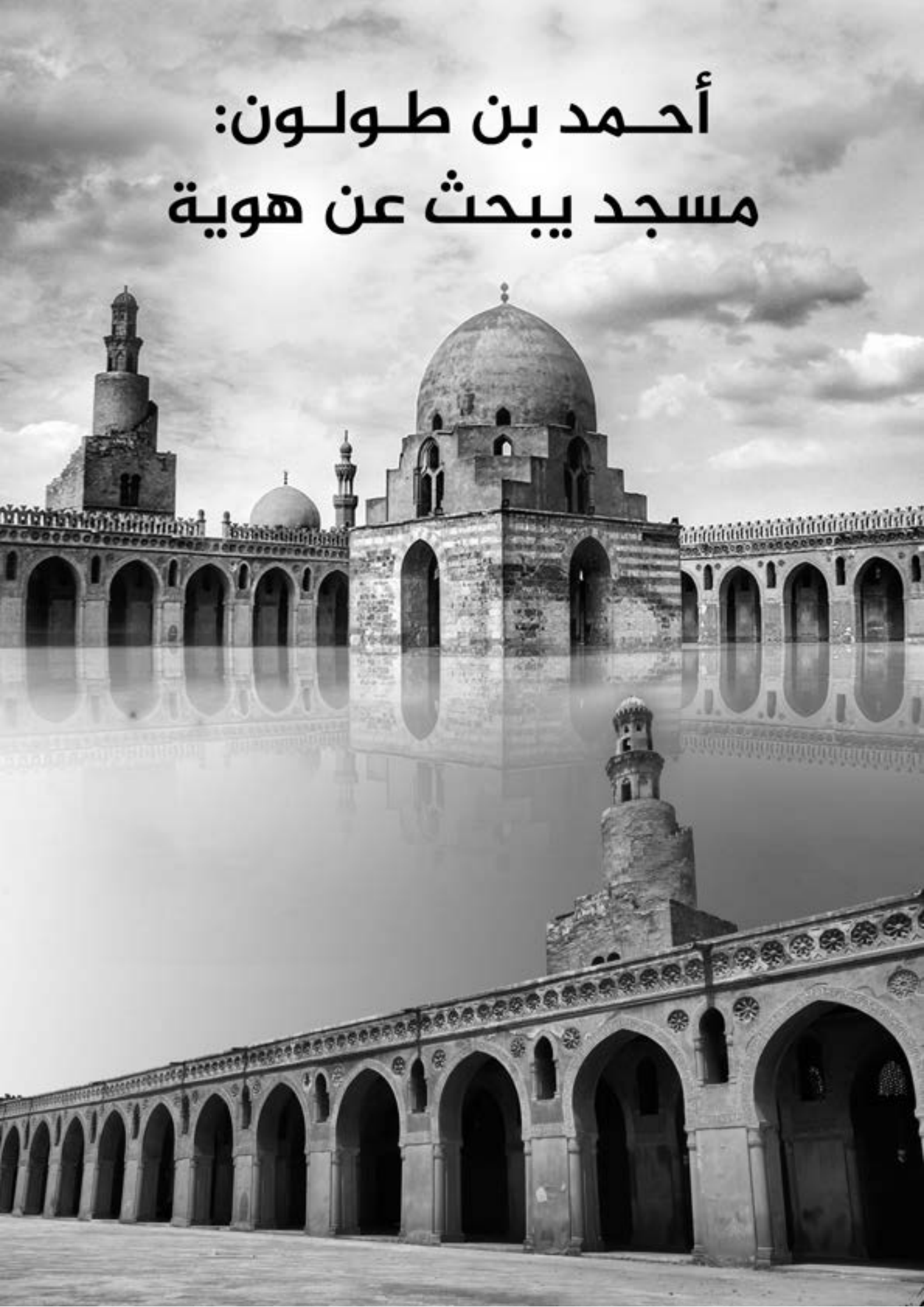

أحمد بن طولون: مسجد يبحث عن هوية

معاذ لافي

باحث أكاديمي في الآثار الإسلامية
متخصص في الإرث الأندلسي والاستشراق المعماري

في أحد أيام الجمعة من أيام ولاية أحمد بن طولون على مصر، ذهب إلى الصلاة في إحدى مساجد مدينة العسكر، تلك المدينة التي تم تأسيسها بعد مدينة الفسطاط لتكون عاصمة ولاية مصر العباسية؛ لكن زحام المسجد أثناء الصلاة جعله يقرر بناء مسجد آخر يسع الجمع الكبير من المصلين، خاصة وأنه على وشك بناء عاصمة كاملة جديدة. كانت تلك العاصمة التي بناها أحمد بن طولون تسمى القطائع، وموقعها الآن منطقة ميدان القلعة حتى مسجد أحمد بن طولون في منطقة السيدة زينب، أنشأت المدينة من عناصر رئيسية مثل المسجد والقصر وبعضًا من بيوت الحاشية والوزراء.

جرت العادة أن الملك الصحيح يأتي بالعمران الصحيح، وعمران القرون الوسطى على أنماط وأشكال مختلفة، لا يستقر على حالة واحدة، وأنماطه تختلف بناء على الخلفية التاريخية لصاحبه.

المخيلة التاريخية لأحمد بن طولون نفسه تشكلت في كنف بني العباس في العراق الذين بنوا مدينتين جديدتين في مراحل تاريخية مختلفة، فالأولى كانت العاصمة الرئيسية للخلافة العباسية وهي بغداد، تلك المدينة العظيمة التي بناها أبو جعفر المنصور وسورها بسور عظيم الشأن والبنيان، وبنى بداخلها قصرا له ومسجدا جامعا مشهودا.

والثانية كانت سامراء، وسامراء تلك مدينة تاريخية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، كان فيها من العمارة والفنون ما لم يجمع لمدينة أخرى مثلها في ذلك الوقت، فكانت باكورة الفن الإسلامي الأساسي عند مؤرخي فنون العصور الوسطى.

وتلك المدينة بناها الخليفة المعتصم بالله العباسي سنة 221 هجريا، لتكون مقر الخلافة في زمانه، وبنى فيها المسجد الجامع الرئيسي ذي المئذنة التي أطلق عليها لفظ الملوية، لأنها ملتوية الشكل والهيئة، وعمل عليها من بديع فنون الجص حتى كادت تنافس بغداد.

نشأ أحمد بن طولون في ربوع تلك المدينة الجديدة، وقد شرب منها واقتبس أنواع الفنون والعمارة فيها، فنشأ وهو لا يرى غيرها ولا يتقن أحسن منها.

كان موقع مسجد أحمد بن طولون خارج القاهرة التي أسسها الفاطميون، فيما أطلق عليه اسم «مصر». ومدينة مصر تلك تشمل الفسطاط والعسكر والقطائع، أي كل ما دون القاهرة المسورة. وقد كانت مصر تعبر عن المصريين بمعنى أكثر عمقا من القاهرة ذاتها، كانت تسكن فيها القبائل العربية التي استقرت منذ الفتوحات، ثم جماعة من المصريين أنفسهم الذين أسلموا، ولا غنى عن الأقباط.

ثالث المساجد في مصر

كان موقع مسجد أحمد بن طولون خارج القاهرة التي أسسها الفاطميون، فيما أطلق عليه اسم « مصر»، ومدينة مصر تلك تشمل الفسطاط والعسكر والقطائع، أي كل ما دون القاهرة المسورة.

وقد كانت مصر تعبر عن المصريين بمعنى أكثر عمقا من القاهرة ذاتها، كانت تسكن فيها القبائل العربية التي استقرت منذ الفتوحات، ثم جماعة من المصريين أنفسهم الذين أسلموا، ولا غنى عن الأقباط الذي قطنوا حارات وأحياء داخل الفسطاط وخارجها بالتأكيد.

لذا كانت مدينة مصر هي المعبّر الحقيقي عن المصريين، انعكس هذا بالتأكيد على العمائر التي أقامها خلفاء وسلاطين مصر تباعا عليها، فنجد الخلفاء الفاطميين كانوا يستميلون الناس عن طريق منشآت فيها.

لقد كان مسجد أحمد بن طولون أحد المساجد الرئيسية الجامعة الثلاثة في مصر آنذاك، المسجد الأزهر وهو المسجد ذو الطابع الشيعي ومنبع المذهب الإسماعيلي في مصر، ومنطق الدعاة الإسماعيليين وأساسهم. ومسجد عمرو بن العاص، مربط السنة وأساس انطلاقاتها العقدية، كانت تعقد فيه دروس المذاهب الأربعة السنية وخاصة المذهب الشافعي ذو الثقل التاريخي في مصر، ثم مسجد أحمد بن طولون.

لكن السؤال الذي لابد وأن يراود القارىء، ما موقع مسجد أحمد بن طولون من تلك الثنائية المتبارزة والمتصارعة دوما؟ لم يكن ذا موقف محدد، تارة هنا وتارة هناك، فلقد أضاف الفاطميون فيه إصلاحات تعبر عن اهتمامهم بهذا الموقع التاريخي الهام.

خاصة أنه بجانب أحد أهم الشوارع التي اهتم بها الفاطميون خارج القاهرة، وهو خط ابن طولون -شارع الأشراف الآن- الذي أقام فيه الحاكم بأمر الله ثلاثة مشاهد رئيسية لآل البيت، ثم أمر الآمر بأحكام الله بإنشاء ثلاثة مشاهد أخرى.

وهم مشهد عاتكة والجعفري وكذلك مشهد السيدة رقية، انتهاءً بالمشهد الأهم والرئيسي وهو المشهد النفيسي، وكان مسجد أحمد بن طولون يقع

على أول الطريق المؤدي إلى هذا الخط العظيم والمهم عند الفاطميين، لذا لم يكن من الهين التنازل عن هذا الموقع التاريخي والمسجد الرئيسي بدون إضفاء صيغة فاطمية عليه.

بدأت تلك الحكاية من زمن العزيز بن المعز لدين الله الفاطمي، الذي قام بترميم وإعادة بناء فوارة المياه في منتصف الصحن، وذلك بسبب أنها احترقت، ويتحدث المقريزي عن ذلك بقوله: «كانت في وسط صحنه قبة مشبكة من جميع جوانبها وهي مذهبة، فاحترق جميع ذلك في ساعة واحدة».

فكانت فرصة مهمة لأن يعلن في ذلك الخليفة الفاطمي رعايته للمسجد الكبير في تلك المنطقة الهامة، ثم أتى من بعده الحاكم بأمر الله، لكي ينزل في الجامع ثمانمائة مصحف، لكن الطابع الفاطمي الرئيسي في المسجد هو المحراب المستنصري، وهو أحد المحاريب التي أقامها الخليفة المستنصر بالله داخل المسجد الطولوني، وهو تأكيد على الطابع الفاطمي الذي أصر الخلفاء الفاطميون أن يضفوه.

يزين هذا المحراب منتصف البائكة الثانية مما يلي الصحن وكتب عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المحراب خليفة فتى مولانا وسيدنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأئمة المنتظرين السيد الأجل سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين».

ولما اشتدت الأزمة في عهده، تدهور حال البلاد والعباد، حتى خرب ما حول الفسطاط وأصبح

تلالا من الرمال والتراب، انعكس هذا الخراب بالتأكيد على جامع أحمد بن طولون، لذا أمر الوزير القوي بدر الجمالي بإنشاء عمارة على المسجد، وعمل على تهذيبه بالنقوش والإنشاءات الجديدة، ثم أتى بعد ذلك الحافظ الفاطمي على يد قاضيه سراج الدين وعمل على تهذيبه هو الآخر.

المماليك وترميم المسجد

تعامل الفاطميون مع المسجد بمبدأ الوصاية، لأهميته المركزية في المدينة، خاصة مع ابتعاد مقصدهم من عمرو بن العاص، وعدم سلطانهم عليه كونه مسجدا ذا مذهب سني رئيسي، ولا غنى بالتأكيد عن أهمية مسجد كمسجد ابن طولون، لمركزيته وسط السكان وقربه من المشهد النفيسي ولاتساعه المعروف.

لم يكتب لمسجد أحمد بن طولون أن يستمر على حالته كمصلى، حيث انقلب في زمن صلاح الدين الأيوبي إلى ملجأ ومقر للمغاربة، وفيه أقاموا وارتحلوا، حتى سميت الجهة التي بها الجامع خط المغاربة. لقد كانت مسألة ترميم مسجد ضخم كهذا مكلفة إلى حد كبير، لم يكن كذلك فقط، بل على زمن السلطان بيبرس البندقداري تحول إلى مخزن ومخبز، ويقول المقريزي: «وأمر السلطان بيبرس البندقداري أن يفرق من الشون السلطانية على أرباب الزوايا كل يوم مائة إردب بعدما يعمل خبزا بجامع ابن طولون».

انتهى المسجد على تلك الحالة الغريبة إلى زمن السلطان حسام لاجين، وتحكي المصادر التاريخية قصة مثيرة هي الأخرى عن التغير الذي نال المسجد، وهي أن حسام الدين لاجين كان من المماليك الذين دربوا لقتل الأشرف خليل مع بيدرا، وحينما عُرف الخبر في أرجاء السلطنة هرب إلى الخراب ناحية المسجد، وكان يتردد عليه للبيات والسكنى، متخفيا من مماليك الأشرف ألا يقتلوه، وأخذ على نفسه عهدا، إذا سلمه الله من هذه المحنة ومكنه من الملك، أن يجدد عمارة الجامع ويجعل له ما يقوم به.

وبالفعل تولى حسام الدين لاجين سلطة المماليك وقام على رأس الملك فيها، فعمل على إنشاء عمارة جديدة للمسجد، حيث بدأ بتجديد المئذنة وأصبحت بشكلها المميز الباقي حتى الآن، وقام بعمل فوارة للمياه جديدة في صحن الجامع، ثم قام بعمل منبر في منتهى الاتقان والعبقرية، اشتمل على فن

رفيع المستوى، وهيكل قويم لا نظير له في مساجد مصر كلها. لم يكتف بهذا، بل رتب فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة، ودروسا لتفسير القرآن الكريم، ودروسا للحديث النبوي الشريف، ودروسا للطب، وأقام مرتبا مخصصا للخطيب، وجعل له إماما ومؤذنين وفراشين وخدمة، في تلك المرحلة اتضحت صورة المسجد، الذي أصبح مدرسة لتدريس المذاهب الفقهية الأربعة السنية.

لكن الحظ السعيد لم يرافق المسجد كثيرا، حيث أهمل في القرن التاسع عشر وأصبح ملجأ للفقراء والعجزة، حتى أتت لجنة حفظ الآثار العربية في أواخر القرن التاسع عشر وعملت على إعادة تأهيله وترميمه بشكل كامل، ليصبح على تلك الصورة الآنية.

خاتمة

مر مسجد أحمد بن طولون بمراحل وفترات تاريخية مختلفة، منذ أن أنشأ كمسجد أميري، لوالي قوي بوزن أحمد بن طولون، حتى استقراره الآن بصورته التي أعادته لها لجنة حفظ الآثار العربية، مرورا بالخلافة الفاطمية التي كان له فيها الحظ الأوفر والأسعد، كمسجد نال اهتماما واسعا وكبيراً من الخلفاء الفاطميين. ثم بالمحطة الأهم في تاريخه وهي محطة السلطان سيف الدين لاجين بصورته السنية القوية، لكن المسجد ظل طوال تاريخه يصارع في تحديد هويته كمسجد غريب لا ينتمي لطراز مصري في العمارة، ولا لاهتمام هوية دون الأخرى.

دور وسائل الإعلام في صنع القرار السياسي

دور وسائل الإعلام في صنع القرار السياسي

صبار محمد رضى

باحث في القانون العام والعلوم السياسية
حاصل على ماجستير في القانون العام

يعتبر الإعلام حلقة الوصل بين صانع القرار والجمهور، وهو يتأثر ويؤثر في النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وتعاني وسائل الإعلام في عالمنا الحديث من مشكلة التبعية للسلطة الحاكمة، من خلال الرقابة الشديدة التي تمارسها الأنظمة، إذ تشكل وسائل الإعلام الرأي العام من خلال سلسلة من التأثيرات، تمارسها على أفراد المجتمع، تنتهي بحشد رضاهم واتفاقهم على نقاط محددة حول قضايا معينة.

يؤثر الإعلام على عملية صنع القرار عبر أربعة مراحل: تحديد المشكلة، تحديد البدائل، اختيار المعلومات، تطبيق القرار، بحيث تعمل استراتيجية الإعلام على تقديم المعلومات المتناسقة في الاتجاه المؤثر في صنع القرار، أما العلاقة بين الرأي العام وصنع القرار السياسي فهي علاقة متبادلة، حيث يؤثر كلاهما في الآخر.

من العوامل المؤثرة في عملية صنع القرار السياسي نجد شخصية صانع القرار، التركيبة الاجتماعية والسياسية للمجتمع، المنظومة الأمنية، الرأي العام، وأخيرا الإعلام الذي يشير إلى عمليتين، الأولى هي استخراج المعلومات والحصول عليها، وتعني الكيفية التي تصاغ بها هذه المعلومات وتبث للجمهور المستهدف، والثانية إلى أي مدى تكون هذه المعلومات موضوعية.

تقوم وسائل الإعلام بهاتين العمليتين، لذا فإنها تساهم في صناعة القرار، من خلال توفيرها المعلومات التي يحتاجها صناع القرار، كما تساهم في قبول أو رفض القرارات من طرف الرأي العام، إضافة إلى تعزيز الحوار بين الثقافات من خلال تبسيط الحوار بينهما، وتنمي الشعوب وتحفزها على التعاون والاتحاد.

إن دراسة تأثير وسائل الإعلام على صناعة القرار السياسي يقودنا في البداية إلى الاطلاع على دور وسائل الإعلام في تشكيل الرأي العام، ثم تحديد الوظائف التي تقدمها وسائل الإعلام لصناع القرار، ومن هذا المنطلق تتشكل الإشكالية حول مدى مساهمة وتحكم وسائل الإعلام في صناعة القرار السياسي.

وسائل الإعلام وتشكيل الرأي العام

اتفق الباحثون على أن تشكيل الرأي العام من طرف الإعلام يمر بعدة مراحل، إلا إن كلا منهم حدد تلك المراحل من وجهة نظره، وعلى العموم يتشكل الرأي العام وفق خمسة مراحل، بحيث يعتبر إدراك المشكلة

> **تعاني وسائل الإعلام في عالمنا الحديث من مشكلة التبعية للسلطة الحاكمة، من خلال الرقابة الشديدة التي تمارسها الأنظمة، إذ تشكل وسائل الإعلام الرأي العام من خلال سلسلة من التأثيرات، تمارسها على أفراد المجتمع، تنتهي بحشد رضاهم واتفاقهم على نقاط محددة حول قضايا معينة.**

هو المرحلة الأولى من مسلسل تشكيل الرأي العام من طرف وسائل الإعلام.

وهنا تمثل وسائل الإعلام الجماهيرية دورا هاما في الاهتمام بالمشكلة، ثم تليها مرحلة تعدد الآراء ومناقشة القضية، وظهور وجهات النظر المختلفة حول أسباب المشكلة ومسارها وحلولها، مع ربطها بمحيطها المجتمعي، ثم تأتي المرحلة الثالثة المتمثلة في تطور المناقشة بين الأفراد، لتصبح نقاشا بين القوى الاجتماعية والطبقية أو الفئوية.

ثم بعد ذلك تتضح الأفكار والرؤى حول الأبعاد والمفاهيم، وتتقارب وجهات النظر خاصة في نقاط معينة، لتمثل بذلك المرحلة الرابعة، أما آخر مرحلة فهي مرحلة الرضا والاتفاق، مع التوصل إلى الحلول الوسطية المناسبة، واستبعاد الآراء المتطرفة، وبالتالي

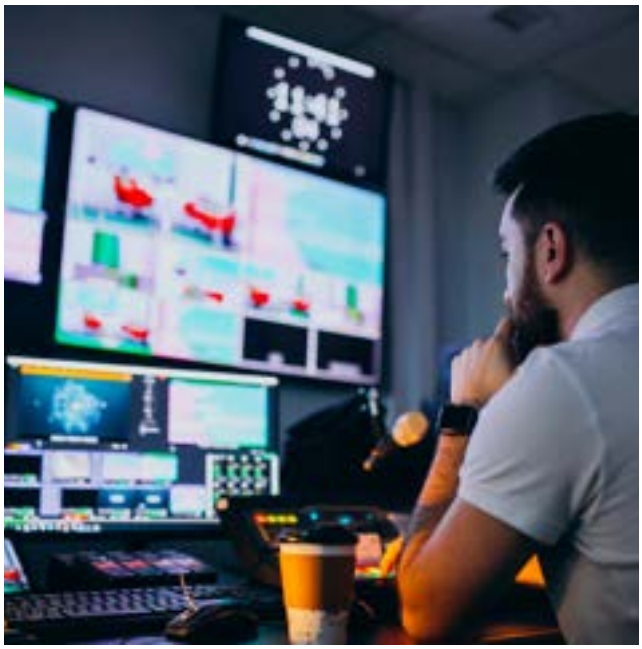

يصبح هناك رأي معين تقبله الأغلبية.
كما تؤثر وسائل الإعلام على الرأي العام، خاصة في وقتنا الحالي مع تطور التكنولوجيا وانتشارها على نطاق واسع في المجتمع، حيث أصبح الإعلام نقطة الانطلاق للتوجيه وتبني المواقف تجاه الأنشطة المحلية أو الدولية، الاقتصادية أو الاجتماعية، السياسية أو الحربية، وغيرها من المجالات الأخرى.
وذلك من أجل حشد آراء الشارع، كما أن الاستخدام الفعال لآخر تقنيات الإعلام ضروري من أجل التحكم واللعب بالعواطف والسيطرة على العقول، والاعتماد على القنوات الفضائية في اتجاه استبدال الصورة باللغة، وهي توجهات عالمية أكثر من كونها محلية .
من الضروري أن نشير إلى علاقة الرأي العام بالظاهرة السياسية، بحيث أنه في عالمنا اليوم يملك كل فرد جزءا من السلطة تبعا لديمقراطية النظام السياسي القائم، فالسلطة خاضعة لتأثيرات الأفراد والجمهور ونقدهم، كما أن القائمين على السلطة لم يعد بإمكانهم اتخاذ الكثير من القرارات من دون موافقة على الأقل ضمنية.
أصبح الرأي العام ظاهرة لا يمكن تجاهلها من طرف السلطة الحاكمة، مثلها مثل أية ظاهرة أخرى، وتتحدد العلاقة بين الظاهرة السياسية وظاهرة الرأي العام من خلال مستويات دقيقة تشير إلى تأثير ذلك في السياسة الخارجية والداخلية.
فالمستوى الأول يتمثل في الرأي العام المحلي، ومشاكل السياسة القومية المرتبطة به، فإذا كان المجتمع متقدما ومهتما بمشاكل السياسة الخارجية ومعبرا عن رأيه العام حولها، فإن المجتمع المتخلف لا يهتم سوى بمشاكل السياسة الداخلية فقط.
ثم هناك الرأي العام المحلي والقومي، الذي يمكن استخدامه للتأثير على القوى السياسية الداخلية في مواجهتها لقرار سياسي خارجي، وهناك مستوى الرأي العام الدولي الذي نجح كقوة ضاغطة تحرك السياسة الخارجية محليا ودوليا.
و أخيرا هناك الرأي العام المحلي المرتبط بمستوى آخر من الرأي، له نفس المفاهيم وبالتالي تصبح ظاهرة الرأي العام تعبيرا عن مصالح طبقة معينة متجانسة ومتماسكة أكثر من الرأي القومي.

وسائل الإعلام وصنع القرار السياسي

منذ ظهور وسائل الإعلام، ارتبطت بالنخب الحاكمة واستخدمت للتأثير على الشعوب، وتصدير تصورات ونهوج وفق رغبة النخب الحاكمة، وبالتالي فوسائل الإعلام عند تغطيتها للأحداث تكون منحازة لسياسة الحكومة، وبالتالي تابعة لتلك السياسات ومنفذا لها.

ويطلق على العلم الذي يدرس الأنشطة التي يزاولها القائمون بالعملية الإعلامية بهدف تحقيق هدف سياسي بالإعلام السياسي، وتؤثر وسائل الإعلام في عملية التنشئة السياسية بدرجة كبيرة، حيث تؤثر معرفيا باعتبارها مصدرا للحصول على المعلومات، كما تؤثر عاطفيا على الأفراد، وتزيد اهتمامهم بالقضايا السياسية الدائرة في بيئتهم.

وأيضا هناك تأثير سلوكي يهدف للتعرف على العلاقة بين التعرض لوسائل الإعلام والمشاركة الفعلية في النشاط السياسي، إضافة لذلك تقوم وسائل الإعلام بتزويد عملية صنع القرار بتيار من المعلومات، والتي تمثل المدخلات الأساسية عن طريق توجيه الاهتمام بشكل انتقائي، إلى جوانب معينة في البيئة، وعندما تقوم وسائل الإعلام بهذه الوظيفة فهي ترشح وتبني مدخلات عملية صنع القرار.

وسائل الإعلام تبني أجندة المجتمع، أي أولويات اهتمامات الأفراد في المجتمع، وكذا أولويات اهتمامات صانعي القرار، إذ إنها تمارس دورا مزدوجا عند بنائها للمدخلات المرتبطة بالقرار الديمقراطي، بحيث تنقل مواقف الحاكم للمحكوم والمحكوم للحاكم، فهي تدعم حكم الأغلبية.

وبالتالي تنقل مواقف الجماهير إلى صانعي القرار، الأمر الذي يزيد من التفاعل بين صانعي القرار والجمهور، كما تقوم بتزويد دائرة المعلومات داخل الحكومة، وهي بذلك تساهم في توفير المعلومات داخل دوائر صنع القرار.

وترجع الرقابة والسيطرة الشديدة التي تمارسها الحكومات على وسائل الإعلام إلى كون الأخيرة لها تأثير واضح في صنع القرارات ووضع السياسات، في الدول الشيوعية وحتى الديمقراطية تخضع وسائل الإعلام وخاصة الإلكترونية لدرجة معينة من السيطرة.

محطات التلفزيون والصحف كلها تخضع للرقابة الحكومية، لأن لوسائل الإعلام تأثيرات متفاوتة على سلوك الأفراد، ويهدف الإعلام إلى التأثير في عملية صنع القرار وفق أربعة مراحل، حيث يبدأ بتحديد المشكلة التي

من خلالها يدرك صانع القرار وجود تغييرات في بيئته، تستوجب التحرك لمعالجتها، ويقوم الإعلام بتقديم المعلومات المؤثرة التي تخلق إحساسا بقدوم تغيير في البيئة المحيطة.

ثم مرحلة تحديد البدائل التي تقدمها الاستراتيجية الإعلامية، من خلال طرح معلومات عن البدائل المتعددة للتأثير في القرار مباشرة، وعبر تكتيك يهدف لتقليص البدائل أمام صانع القرار.

ثالث مرحلة هي اختيار المعلومات بحيث تهدف الاستراتيجية الإعلامية إلى الربط بين البديل المرغوب وأنجع النتائج المتوقعة لكل بديل، وفي الأخير تطبيق القرار، بحيث تعمل استراتيجية الإعلام بناء على فهمها لأسلوب صانع القرار على تقديم المعلومات المتناسقة في الاتجاه المؤثر في صنع القرار.

بعد الحديث عن دور وسائل الإعلام في التأثير على صنع القرار السياسي، نشير إلى دور الرأي العام في صنع السياسة العامة، بحيث تعتبر العلاقة بينهما متبادلة، فالرأي العام يؤثر في السياسة العامة والعكس صحيح.

عندما يتم اتخاذ قرار سياسي معين، فإن هناك ميل نحو تقبله من طرف الرأي العام، ولكن عندما تصبح السياسة العامة أكثر تحديدا، فإن الرأي العام يبدأ بالتغيير عادة. إضافة لذلك فالتأثير على الرأي العام يكون سريعا في قضايا معينة، وقد يكون هامشيا في قضايا أخرى.

كما أن درجة اتفاق الجماعات فيما بينها لها تأثير معين في تلك العلاقة، ولكن في أغلب الحالات تؤثر الحكومات على الرأي العام بشكل كبير، ويرجع ذلك إلى الاعتماد على

وسائل الإعلام و الإجراءات الرسمية، فوسائل الإعلام تؤثر على صانعي القرار بحيث تقدم لهم وظائف رئيسية.

إذ إنها تمدهم بالمعلومات حول الأحداث والبيئة السياسية، كما تعكس اهتمامات الرأي العام من خلال نشر خِبرات الأفراد، وتوفر لصانعي القرار القنوات الضرورية لنقل سياساتهم وخططهم إلى الجمهور، فضلا عن تفسير الأحداث الدولية، إضافة لتوجيه الرأي العام نحو القضايا التي ترى الحكومة ضرورة توجيه الانتباه لها دون غيرها .

وفي الختام؛ نتوصل إلى فكرة أساسية، مفادها أن وسائل الإعلام لها دور محوري في تشكيل الثقافة السياسية لدى الجماهير، وبالتالي تزويدهم بالخبرات السياسية، التي يتشكل الرأي العام في المجتمع من خلالها، وتخلق تماسكا بين أفراده، وأيضا تشمل وسائل الإعلام أداة تقديم المعلومات لصانع القرار، حول ما يجري داخل بيئته، كما تمكن الأنظمة السياسية من التحكم وضبط الرأي العام، عبر ما تقدمه له من معلومات داخل إطار يحدده صانع القرار.

طعام السجون: تعذيب أكثر خفاءً وجلّادون في صورة طهاة

طعام السجون: تعذيب أكثر خفاءً وجلّادون في صورة طهاة

شذا تيسير النجار

كاتبة متخصصة في الطعام
خريجة الأكاديمية الملكية لفنون الطهي جامعة لاروش سويسرا

يعتبر الطعام عنصرا أساسيا في حياتنا كضرورة أساسية للبقاء، وإحدى أهم الممارسات اليومية والاستثنائية، كما أنه يرتبط باستقلالية الشخص وتواصله مع جسده، بما في ذلك إنتاج غذائه بنفسه أو على الأقل قدرته على اختيار ماذا سيأكل ومن سيشاركه الطعام.

فالطعام وتناوله يشكلان ثنائيا يشبه تماما الكلمات ونطقها لا ينفكّان، ونوع المأكول يعبر بصورة مباشرة عن صحة متلقيه، حيث يساعد الإنسان على البقاء قويا، أو يضعف الجسد فيعاني الأمراض التي سميت بالأمراض غير المعدية مثل السكري وقرحة المعدة والضغط وهشاشة العظام وغيرها.

في السجون من يطهو الطعام ينسى أن من هم معتقلون ما زالوا بشرا، ولأن الصراع بين الحرية والسلطة هو أحد الصفات الأكثر وضوحا في أجزاء التاريخ المألوفة منذ القدم، فتحرّم حرية ممارسة حق الطعام الجيد على السجين بعد تألمه من الفقد والظلم، أضف إلى ذلك خسارته لصحته بسبب أساليب الطعام السيئة المفروضة عليه.

سوسيولوجيا العقاب ومفهوم الجسد المسجون

يميل مفهوم الجسد المسجون إلى أن يُنظر إليه بشكل أساسي على أنه موضوع للسلطة العقابية، إنها يوتوبيات القرن الماضي المتمثلة في أن الغاية من وراء العقاب هي الإصلاح، ولكنها أفكار لم تعط نتيجة في الواقع.

ومع ازدياد المؤسسات السجنية والظهور الملحوظ في صناعة العقاب والتفنن في أنواعه، فإن السلطة أصبحت اليوم مجردة من الثياب، حيث كشفت الأبحاث أن مهمة السجن هي الثأر والعقاب والجزاء، وأن هذا الفضاء أصبح بؤرة للتنظيمات الإجرامية.

خلال سنة 1832، حسب فوكو، ظهر نظام السجن الذي يسيطر على الحياة اليومية للسجناء، انطلاقا من ساعات الاستيقاظ والصلاة والعمل والغذاء والنوم، ويضبط أيضا حتى علاقة السجين مع نفسه ومع الآخرين.

من المؤكد أن هذا النظام تناول الجسد باعتباره ركيزة للوجود تمت الإحاطة به بأربع أسوار وسط ظروف مزرية، تشمل التكدس، الاختناق، البرد، الجوع، والضرب، بهذا؛ فقد أصبح السجن يؤخذ ضمن نظام من الإكراهات والمحظورات والحرمان بما في ذلك تقنين الطعام والضرب والعزل والحرمان الجنسي والعاطفي.

في هذا الصدد يسلم فوكو في عمله المراقبة والعقاب، أن التغيير الوحيد الذي طرأ على نظام العقوبات هو زوال أنواع التعذيب العلنية وتحولها إلى تعذيب أكثر خفاء، حيث يندرج ضمن الوعي المجرد، وبالتالي فقد انتقلنا من الأجساد المقطعة إلى أجساد مسلوبة فكريا وإراديا.

أفترض أن ما أسلفته من حديث فوكو عن العقاب يبين إلى أي مدى وصلت أجهزة الدول بالبطش، فقد استخدم الطعام في السجون كوسيلة من الدولة لتحكم سلطتها بإنشاء تسلسلات هرمية بينها وبين السجين، فتفرض قوتها عليه،

> **تعرف الثقافة عند الأنثروبولوجيين إلى أسلوب الحياة الذي يميز مجتمعا عن غيره، ومن المؤكد أن هناك ثقافة لحياة السجن، كي تستجيب للظروف التي يعيشونها في الداخل، تكريسا لمبدأ التضامن بين السجناء، وكمثال على ذلك هنالك قاموس للغة السجن، تتعلق بالطعام ومكان النوم وغيرها.**

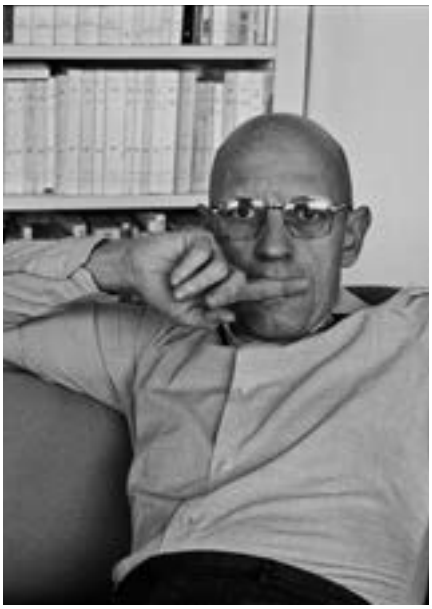

وتستخدمه أيضا كوسيلة خفية للتعذيب البطئ الذي يرتكز على الألم، فيصبح الطاهي مرآة تعكس القوة المادية التي تنصب على جسد المحكومين.

أساسيات الطعام لدى الإنسان: خبز وملح وشمس

«يبقى المعتقل مربوطا إلى الكرسي داخل ظلام الكيس، يرفع الجندي الكيس عن الفم مرة في اليوم، ويعطون السجين كسرة خبز وماء» رواية باب الشمس لإلياس خوري

يعد استعمال الخبز رمزا متطورا، وقد اعتدنا كمجتمعات عربية بذكره في العديد من المواطن، فهو يرمز لكسب الرزق بعمل ما، وأحيانا نستبدل اسمه بالنعمة، فهو نعمة الله وأساس الغذاء، وعندما يرتبط بالملح يصبح دالا على الصداقة والمشاركة، ولكن في السجون خرج الخبز عن إطاره المعتاد، حيث لم نعتد أن يقدم كسرة من الخبز مع جرعة ماء لنبقى على قيد الحياة.

حين يصبح الإضراب عن الطعام هو وسيلة النجاة، والطريقة الوحيدة للاعتراض على تجديد الحبس الاحتياطي والتعذيب والقبض غير القانوني، يدخل الملح كرفيق لرحلة السجين ومنقذ لأمعائه، فيمنحه القوة والصبر إلى حين الوصول لحريته.

هنا ألقي الضوء على المعاني الرمزية الشهيرة والعميقة التي تحملها الشمس؛ من خلال التركيز على السجان وكيف تعامل واستفاد من أهميتها، وأيضا من خلال بعض الشهادات الأدبية التي وثقت بعض تجارب وأفكار المعتقلين في السجون السياسية، لأن السجن السياسي هو إحدى أبرز الوسائل التي تستخدمها السلطة للقمع وانتهاك الحقوق.

حرمان: الشمس غذاء أساسي وفره الخالق لجميع البشر ثم يأتي السجان ليمنح لنفسه الحق بحرمان البشر منها، ففي السجون السياسية يمنع السجين من رؤية الشمس طوال سنين اعتقاله مهما دامت، لتصبح رؤية الشمس هي المعنى المراد من الحرية.

تهديد: أخفيك وراء الشمس، عبارة مشتركة في جميع السجون السياسية العربية، تقال من قبل الجلاد، خصوصا في فترة التحقيق أو السجن الانفرادي، عندما يكون المعتقل معصوب العينين، ويطلب منه الإمضاء على أوراق التحقيق،

فإما أن توقع أو تخفى وراء الشمس.

أداة للتعذيب: من الغريب أن أذكر الشمس كوسيلة تعذيب أساسية، كما وصف عبد المعطي تجربته في رواية باب الشمس لإلياس خوري، حيث يأتي في سرده عن تجربته في السجن على الواقع الفلسطيني المؤلم، ويسهب في وصف التعذيب في ذلك المعتقل. «التشميسة كانت وسيلة التعذيب الأساسية يربطون يديك ورجليك، ويلقون بك تحت أشعة الشمس، فتتلوى وتتبرم وتتدحرج باحثا عن لحظة لتخفيف احتراقك، تبقى هكذا من طلوع الشمس حتى غيابها، ثم يأتي الضابط ويأمر بفك قدميك ورجليك، ويطلب منك الوقوف، فتكتشف أنك صرت عاجزًا عن أي شيء، الشمس غابت تحت جلدك، والنار تعشعش في داخلك والغروب هو اللعنة والموت».

قوة: كانت مصدر قوة للمعتقلين الفلسطينيين، حين استعادوا شمسهم أعلنوا العصيان، هكذا ذكرت الشمس في رواية شمس الجبل لموسى الشيخ ومحمد البيروتي.

«وفي ساحة السجون، أسرى الجبال يتصدون لمخططات إذلالهم وقهرهم، يتمردون على القيد والاستعباد، يتمردون على نظام العمل المذل، وعلى إجراءات الإهانة والحرمان والتعذيب وحفلات القمع المستمرة، يستعيدون إنسانيتهم وشمسهم، ويعلنون العصيان في خطوات نضالية متواصلة، فتتحول السجون إلى مدارس وخنادق ودولة أخرى، وصوت مدوي للحرية يسطره إضراب عسقلان التاريخي، وإضراب نفحة وأرواح الشهداء والمعركة لا زالت مستمرة».

الطعام خارج سياقه: خلق قاموس للغة السجن

تعرف الثقافة عند الأنثروبولوجيين إلى أسلوب الحياة الذي يميز مجتمعا عن غيره، ومن المؤكد أن هناك ثقافة لحياة السجن، كي تستجيب للظروف التي يعيشونها في الداخل، تكريسا لمبدأ التضامن بين السجناء، وكمثال على ذلك هنالك قاموس للغة السجن، تتعلق بالطعام ومكان النوم وغيرها. مثلا في مصر؛ تبدأ رحلة تحرير المحضر بالثلاجة، التي هي رمز لحجز المباحث، وهو مكان لا يوجد به فرش أو تهوية، منعزل عن العالم، ثم هنالك حجز القسم الذي يدخله «والأكل الملكي في بطنه»، تعبير عن الطعام الذي أكله آخر مرة قبل اعتقاله.

بعدها ينتقل إلى السجن، وفي العنبر يتحول السرير بمساحة شبر وقبضة إلى «نمرة»، وتستمد نورك من فتحة الباب أو «النضارة»، فهي تقوم بنفس الوظيفة حيث يعتبر السجين نفسه أعمى بدونها، ومن خلالها يطل على مساحة أوسع، يرى وجوها من عنبر آخر ويتحدث إليهم، وفي الليل تصدح بالأناشيد والأشعار والهتافات، فتصبح وسيلة للتعبير عن حرمانهم من هذه الحقوق؛ حقوق التعبير عن الأفكار والمعتقدات.

التعيين، المطبخ يأمن، الأخير يحفظ، البواقي حرام، كلها عبارات تخص الطعام وتقال كل في موضعها، وبعد ذلك عندما يحق للسجين طلب الطعام من أهله، يطلب منهم عيش وحلاوة أو شئ يدوم لوقت طويل.

سوس مسوس، أو سوس مفوّل .. عبارة ساخرة قالها الشيخ كشك، واستخدمها المعتقلون من بعده، لوصف الفول الفاسد الذي يقدم لهم، وفي النهاية تصبح أدوية ألم المعدة من قائمة احتياجات المعتقل الأساسية في السجون.

كيف لخيال السجين أن يكون منقذه؟

تستخدم السلطات المؤسسية للسجون ظروف المكان والطقوس المتعلقة بالطعام، فضلا عن الطعام بحد ذاته، لتخلق لدى السجين شعورا بالغربة بين ذاته وجسده، لأن الإنسان منغمس في محيط يتشكل مما يدركه عبر حواسه. ولكن هذا المكان كما وصفه جورج أورويل في كتاب الطريق إلى رصيف ويغان: «المكان يسبب لي الحزن والكآبة، ليس بسبب القذارة والروائح والطعام الردئ فقط، بل بسبب الشعور بالانحطاط الراكد التافه بالهبوط إلى مكان تحت سطح الأرض».

فيصبح السجين مجبرا على افتراض وجود آخر، يتخطى حدود مكان العنبر أو حتى السجن ككل، ليبدأ بتجربة تجاه حواسه، كي يتخطى فكرة الفضاء بمفهومه البصري، ويفتح نوافذ ذاكرته وخياله لتسكّن ألم شعوره، لأن العالم الذي يعيش فيه من خلال جسده ليس مهيئا لبشر.

كما نقل الصحفي تيسير النجار تجربته لزوجته ماجدة الحوراني برسالة من عنابر الأمنيين في سجن الوثبة الإماراتي بعنوان «مخزون الأكل العاطفي .. مخزون حبك يا ماجدة».

إذ يقول: «منذ 970 يوما أعيش على الطعام المفترض للأكل الذي كنت تصنعينه بشغف لا يقل بأهميته عن شغف حبك لي، كيف يحدث ذلك الطعام المفترض للأكل؟ أجلس كل يوم وأفكر بالأكل الذي تصنعينه، وذلك قبل أن تبدأ وجبات الأكل المكررة، ومن ثم أبدأ بتذكر كل طبق كنت تعدينه لي، وهذا ما يستدعي مني أن أعد قائمة أسبوعية لرغباتي بوجبات الطعام التي كنتِ تعدينها، واعتمَدتها مخيلتي كبرنامج مفترض لي، الطعام المفترض للأكل يشبه نوعًا ما الطعام المفترض للحب، مع الفارق الذي يحدد وفق المخزون العاطفي».

وفي الختام؛ آلاف المعتقلين يتم القضاء عليهم بطرق تعذيب خفية، فيذوقون ألم الموت البطيء بسبب طعام السجون، فهل نسي أحدكم أن من في السجون ما زالوا بشرا، أم تراكم تتناسون؟!

العم أسعد: فارس جـال أصقاع البلاد

العم أسعد: فارس جال أصقاع البلاد

أحمد سيف النصر

كاتب وصحفي
مهتم بالشؤون السياسية
وقضايا المجتمع والثقافة

وجه جميل وجذاب، ترتسم عليه سمات الرزانة، ذو مظهر أنيق، بشعر ولحية بيضاء وعيون عسلية، لم يجد حريته إلا في الحروف والكلمات، العمر عنده قصص وحكم، انفعلت أعصابه بأحداث الأيام، وألزمته أن يكون ما كان، وبالرغم من أنه بات بعد الستين، لكنه شاب على الدوام، اسمه: أسعد طه.

بنى نفسه بنفسه وكسر قيود الوظيفة مبكرًا، جمع ما بين رشاقة القلم، والصدق في التعبير، وملكة الحكي، وصوته الساحر الذي يخترق الروح.

طاف نصف الكرة الأرضية، وقضى أعوامًا في معايشة أهوال الحروب وويلاتها، والتي تركت في نفسه آثارًا بالغة، فقد عايش الظلم والعدل، ووثق للضحية والجاني في آن واحد، كما أن الخلطة الجميلة التي قدمها في أفلامه الوثائقية، جعلته رائدًا في إنتاج وصناعة هذا الفن.

كمية التجارب الغنية والخبرات المستمدة أهلته لأن يترك بصمته على العديد من الأعمال، وأهمها وأكثرها حظًا، هي تجربة البوسنة والهرسك وأيام الحرب فيها.

بالرغم من أسفار أسعد الكثيرة، وتنقله ما بين العديد من البلدان، إلا أن البوسنة والهرسك والتي يحمل جنسيتها، تظل عشقه الأكبر، حيث أحب إسلامها السلس الصادق، ووقع في حبها من أول نظرة، إذ يرى أسعد أن المدن مثل النساء، تشعر بها ولا تعرف سببًا للوقوع في حبها، ويعقب: «عليك أن تعمل الصالحات حتى تدخل الجنة في الآخرة، أما في الدنيا فيمكنك الذهاب إلى سراييفو».

البداية: تهجير واعتقال

ولد الطفل أسعد طه في مدينة السويس بمصر، أبصرت عيناه النور في الأول من فبراير عام 1956، عاش جزءًا من طفولته في السويس، والتي يصفها بأنها بيت العائلة الكبير.

تأثر أسعد بالبيئة الأسرية التي ترعرع فيها، حيث كان للوالد والوالدة أثر طيب في تنشئته، ويحكي أنه عرف مجد الحكاية من والدته وأبيه وأخته حينما كان طفلًا، كما تعلم المبادئ على أيديهما بصورة تلقائية وواقعية، لدرجة أن أسعد يقول دائمًا: «والدي ما زال يربيني وهو في قبره».

وحين وقعت هزيمة 1967، عاش أسعد ظروف الاحتلال الإسرائيلي الذي عصف بمدينته، وكانت هذه أول حرب يشهدها، وكان أشد مشهد على نفس الصغير، هو وجود العلم الإسرائيلي على الضفة الأخرى لقناة السويس.

بعدها تم تهجير الكثير من العائلات، ومن ضمنهم عائلة أسعد، حيث قررت الدولة المصرية إغلاق المدارس والمؤسسات والشركات، واعتبار

> تعرف أسعد على رجل من البوسنة، تحدث إليه عما يجري في يوغسلافيا وقتها، وباغته بالسؤال: هل يعلم قومك بوجودنا هنا؟ هل يعلم العرب والمسلمون أن هذا الجزء من أوروبا المسمى البوسنة والهرسك هم مسلمون عانوا ما عانوا ويتوقعون الحرب؟

مدينة السويس منطقة عسكرية يحظر البقاء فيها. لذا اضطرت عائلة أسعد لأن تُلملم أشياءها، وهُجرت من ديارها مع باقي العائلات إلى مدينة طنطا، وعاش أسعد فيها ما تبقى من طفولته. كان أسعد متفوقًا في مشواره التعليمي، وأخذ يوسع مداركه الأدبية والفكرية إلى جانب دروسه التي يتلقاها في المدرسة، حيث أحب القراءة والكتابة منذ أن وعى الحياة، وكان يقرأ كل ما تصيبه يديه، ويقول: **«كل كتاب أو قصة تقع في يدي، كان بالنسبة لي أفضل من ملابس جديدة لطفل في عيده».**

ويحكي أسعد أن أخته الكبرى كانت تساعده في شراء الكتب عندما تنفذ قروشه، ومن شدة ولعه بالقراءة، كان كلما ذهب مع والده لزيارة صديقه اليوناني الذي يمتلك مكتبة زاخرة، يستغرق معظم الوقت في قراءة الكتب، وفي ختام الزيارة، يشترى الوالد له كتابًا. وبجانب ذلك؛ فقد زاد تأمله وهو طفل كبير في سر الحكاية في القرآن الكريم، كما كان والده من أعلام الكتابة الفكاهية، وحَكاءً بين أصدقائه، وكان أسعد يعشق الاستماع إلى حكاوي الوالد.

وبالرغم من أن أسعد كانت لديه قناعة مبكرة بأن الصحافة هي قبلته، إلا أنه درس الهندسة في جامعة الإسكندرية إرضاءً لوالده، وشارك حينها بالأنشطة الطلابية، والمظاهرات، وكان عضوًا في منظمة الشباب التابعة للاتحاد الاشتراكي، ولكنه تركه.

وعايش أيضًا جماعة الماركسيين، وحكى عن علاقته بتيمور الملواني، ورغم خلافهما الأيديولوجي، إلا أن أسعد يكن له المحبة والتقدير.

وفي إعدادي هندسة، كتب أسعد مقالة في مجلة الحائط سخر فيها من أمير الجماعة الإسلامية في هذا التوقيت، لكنه حين أراد أن يتعرف على هذا الكيان الكبير الذي كان يضم ألوانًا شتى من الشباب المتدينين، دخل بينهم للاطلاع، ولكنه لم يلبث أن تركهم.

وعقب مقتل السادات، كان أسعد على موعد مع الاعتقال في سجن أبي زعبل، فالأمن لديه أسماء ولا يغفر الذنوب أبدًا، ولا يسامح عن الماضي وإن كان بسيطًا، يقول أسعد:

«أيام السجن طويلة ومملة ولياليه قاسية، بشكل لا يمكن أن يتصوره الحُر، وأسوأ ما فيها أنك لا تعلم

ماذا يخبئ لك الغد، أنت لست محكومًا بحكم محدد الزمن فتعرف متى سيطلق سراحك، وإنما أنت هكذا في مهب عاصفة، قد يُفرج عنك الآن، وقد تُنقل إلى سلخانات التعذيب غدًا، وفي كل الأحوال تهزك الشائعات التي تنطلق في السجن بسرعة الصاروخ».

ويبدو أن تجربة المعتقل تركت ندوبًا في شخصية أسعد، وأثرت عليه كثيرًا، وقد حكى عن تجربة الظلم الذي وقع عليه هو وأصدقائه، والصفعات على أيدي حماة الوطن، وكيف كانت أجهزة الأمن المصرية تعتقل الشباب لمجرد الاشتباه بأنهم يرتادون أحد المساجد التي يصلي فيها أفراد الجماعة الإسلامية.

تجربة مؤلمة عاشها أسعد، واللافت أن تجربة أسعد في الثمانينيات تتشابه بشكل كبير جدًا مع ما يحدث الآن، ويبدو أن معاناة المصريين لا تتغير بتغير الرؤساء، ومازالت مصر في زنزانة.

يقول أسعد:

«أشعر بخجل شديد وأنا أستعيد تفاصيل هذا الاعتقال، هو بمثابة نزهة صيفية إذا ما قورن بما يجري اليوم للمعتقلين وزائريهم، منذ سقوط الملكية والطاحونة تدور تدهس الكل وبمساواة بين الجميع مهما اختلف المعتقد».

السجون هي مرآة المجتمعات، فهي تكشف عن مستوى حقوق الإنسان في الدولة، فإذا امتلأت بآلاف الأبرياء، فأنت أمام نظام مستبد، يقود المجتمع نحو الانحدار، ولذلك يرى أسعد بأن أفضل من يصنع المقاومة والمعارضة -حتى الإرهاب- هم رجال الأمن في معامل الاعتقال، ولذلك يعتبر بأن **«السجن مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق، نعَم.. السجن مدرسة عافانا الله منها».**

من الغربة إلى المغامرة

في الثمانينيات وبعد أن أفرج عن أسعد من المعتقل، رحل عن مصر، وكان حينها على مشارف الثلاثين من عمره.

عاش في ألمانيا واتخذها مستقرا لعائلته، ولم يكن صحفيًا حينها، وإنما كان يحاول أن يبدأ، حيث كان يعمل بدوام جزئي في بعض الفنادق والمطاعم حتى يستطيع أن يؤمن سفرياته الصحفية التي يصرف عليها من جيبه الخاص.

ورغم أن أسعد لم يدرس الصحافة أكاديميا، لكنه بدأ في تعلمها بشكل ميداني، وعن هذه الفترة يقول:

«عندما غادرت مصر، كنت وقتها أريد أن أعمل في الصحافة، ووجدت أن البقاء في بلدي وحيث أنا هو المغامرة، الناس تظن دائمًا أن الحركة بها مغامرة، والسكون هو الأمان، ولكني اكتشفت بعد أن اتخذت هذا القرار أن العكس تمامًا هو الصحيح، أن السكون هو المغامرة.. مغامرة ألا تحقق أي إنجاز في حياتك إذا بقيت في هذا المكان».

بدأ أسعد حياته المهنية في العمل كصحافي ومراسل مستقل، وكان يشق طريقه شقا ويحفر الأرض بإبرة صحافي مستقل، وهي خطوة جريئة في ذلك الوقت، لكنها أعطته الحرية التي أرادها.

كان اهتمام أسعد في البداية منصبا على دول أوروبا الشرقية التي يمثل المسلمون فيها أقلية، وكان يرتحل من منطقة إلى أخرى لينقل أخبار المسلمين لبعض الجرائد الصغيرة.

في الثاني من أغسطس 1990، سافر أسعد إلى منطقة في بولندا، لتغطية منتدى يجمع بين شباب المسلمين من أوروبا الشرقية، ولكن بسبب غزو العراق للكويت تم إلغاء المنتدى.

وفي طريق عودة أسعد، تعرف على مجموعة من المشاركين في المنتدى، وكان من بينهم، رجل من البوسنة، تحدث إلى أسعد عما يجري في يوغسلافيا وقتها، وباغته بالسؤال: **هل يعلم قومك بوجودنا هنا؟ هل يعلم العرب والمسلمون أن هذا الجزء من أوروبا المسمى البوسنة والهرسك هم مسلمون عانوا ما عانوا ويتوقعون الحرب؟** ثم وجه دعوة إلى أسعد للسفر إلى البوسنة.

كان أقصى طموح أسعد هو أن يغطي العائد المادي تكاليف الكتابة والمراسلة من البوسنة والهرسك، التي كانت في ذلك الوقت غير معروفة في العالم العربي، وكان أسعد الصحفي العربي الوحيد المقيم هناك.

وعندما اندلعت حرب البوسنة والهرسك، كان أسعد أول صحفي عربي يشارك في تغطيتها، حيث لم يهتم الإعلام العربي بها إلا حين اهتمت وسائل الإعلام الغربية، وأشارت إلى أن غالبية سكانها من المسلمين.

ورغم إمكانيات أسعد المحدودة مقارنة بزملائه من القنوات الأجنبية، إلا أنه أنتج تقارير متميزة، والتقى عدة مرات مع الرئيس البوسني الراحل علي عزت بيجوفيتش.

أيضًا التقى أسعد مع العديد من القيادات العسكرية البوسنية، وقدم قصصًا مختلفة عن مخيمات اللاجئين، ونفق سراييفو الذي كان بمثابة شريان الحياة للمدينة المحاصرة في ذلك الوقت، مما سمح له بتقديم تغطية مختلفة عن الآخرين.

وبعد انتهاء الحرب، طلبت محكمة العدل الدولية في لاهاي من أسعد الإدلاء بشهادته عما رآه أثناء الحرب في البوسنة.

الكاميرا والكلمة: بندقية متحركة

يصف أسعد نفسه بأنه يسافر إلى الأماكن الرمادية الغير معروفة في التاريخ والجغرافيا، ليكتشف أشياء جديدة مجهولة، ثم يرويها للناس.

كانت البوسنة هي نقطة الانطلاق لأسعد في عالم الصحافة واكتشاف الأماكن الرمادية، ثم طاف بعدها إلى البلدان المجاورة، وشارك في تغطية العديد من الحروب، مثل ألبانيا وكوسوفو وجنوب السودان والعراق والكونغو.

كما غطى الحرب الأهلية بين التوتسي والهوتو في رواندا،

وسافر إلى أمريكا الجنوبية، حيث التقى هوجو تشافيز، لكن منطقة البلقان وآسيا الوسطى، وما جري لمسلمي هذه المناطق، هو أكثر ما شغل وجذب انتباه أسعد.

وأثناء الحرب الشيشانية، منعت السلطات الروسية الصحفيين من الدخول، لكن أسعد نجح في الوصول إلى العاصمة جروزني، وزار عدة جبهات للقتال، كما التقى بمقاتلين عرب، وأجرى مقابلة مع الرئيس الشيشاني الأسبق أصلان مسخادوف زعيم المقاومة، قبل أن تغتاله روسيا.

سافر أسعد إلى الشيشان مرتين؛ وفي زيارته الثالثة، تم اعتقاله في نالتشيك من قبل السلطات الروسية، ثم أطلقت سراحه لاحقا.

وتعد تجربة الشيشان من أصعب وأقسى تجارب أسعد، حيث كان الوضع أشد ضراوة من البوسنة، فطالقوات الروسية دكت كل شيء، ولم يسلط الإعلام الضوء على الشيشان بالرغم من كل ما لاقته.

على الرغم من تركيز أسعد علي توثيق الصراعات خارج حدود الوطن العربي، لكنه يرى بأن هناك تشابها كبيرا بين البشر، والظلم الموجود في كل مكان له نفس اللون، والفساد له نفس اللون، والظالم هو الظالم وإن تغير اسمه وعنوانه، والمظلوم هو المظلوم، والمناضلون لهم نفس اللون. لذلك يرى أن كل القصص الإنسانية مؤلمة مهما اختلف اللون والمعتقد، كل جرح مؤلم خاصة إذا كان من صنع الإنسان بحسب تعبير أسعد.

روى أسعد عن المرات الكثيرة التي تعرض هو ومن معه للموت أثناء عمله الصحفي، لدرجة أنه في كل مرة يعود فيها إلى البيت يقرر ألا يعود إلى مسيرته، وفي مرة طلب منه ابنه الصغير طلبا قاسيا، حيث قال له: «بابا لو كنت

> **يضع أسعد الحكاية في موضع أكبر من مجرد كونها قصة عابرة مسلية، إذا يرى بأن الحكاية ليست فقط أقرب طريق للوصول إلى وجدان الناس، بل أيضا ملجأ يحتمي فيه الإنسان لتوثيق الأحداث، وحفظ التاريخ والحقائق من النسيان والاندثار، ولذلك يعتبر أن الحكاية تحمي ذاكرة الوطن.**

هتموت اتصل بي قبل أن تموت».

يحكي أسعد أن هذه الكلمة علي بساطتها ألقت الرعب في قلبه، ولذلك يرى بأن الخوف مشاعر طبيعية تعتري وجدان الصحفي، لكن الجبن هو ألا تكرر الأمر، أي أن تجعل الخوف يتغلب عليك ويوقفك عن المهمة التي تقوم بها.

ولذلك يرى أسعد أن المسافة الفاصلة بين الخوف والجبن هي الفعل، وإذا هزم الفعل الخوف فهذه هي الشجاعة، والخطر كلما نجوت منه كلما قوي شعورك بالمواجهة، وعن ذلك يقول:

«المقاتل يعتقد أن البندقية قد تحميه من بعض الأذى، فماذا يحمي الصحفي؟ الصحفي يخاف الحرب، وهو يخاف أيضًا الاعتقال، لا تعلم كيف يمثل بك، ولا كم ستبقى أسيرًا في قبضة من يعتقد أنك عدوه حتى وإن صدّق أنك صحافي، في كل مرة أعود إلى بيتي أقرر ألا أعود إلى الحرب، لكن بعد حمام ساخن، وفنجان من القهوة، والتفاف الصغار وأمهم حولي، أتراجع عما عزمت عليه وأقرر العودة».

العمر يُحسب بالحكايات

لأسعد كتاب اسمه «يحكى أن: عن الذات والحرب والثورة»، دون فيه تجربته الطويلة في العمل الصحفي، وبعضا من خبرته التي اكتسبها من الحياة والناس.

صدر الكتاب عام 2018 عن دار الشبكة العربية للأبحاث والنشر، وتبلغ عدد صفحات الكتاب 447 صفحة من القطع المتوسط، مقسمة على 63 حكاية، عبارة عن رحلات وتجارب أسعد التي قام بها.

يصف أسعد مؤلفه فيقول عنه: **«إنه حصيلة ذكرياتي لثلاثين عامًا في أكثر من سبعين دولة، بعناوينها الرئيسية: الذات والحرب والثورة».**

والكتاب ليس من باب التسلية، بقدر ما هو عرضا لتجربته، والفوائد التي من الممكن أن يحظي بها الآخرون، ويركز الجانب الأكبر من الكتاب على ما جري خلف الكاميرا، وعلى الحكايات والكلمات التي لم تسعف أسعد لروايتها في أعماله الإعلامية.

وتعد تجربة أسعد التي دونها انعكاسا لحياته كليا أو جزئيا، كما أن مسحة الحزن وصرخات الألم وشظايا الصواريخ، وصرخات المهمشين، والمآسي وبشاعة الحروب والقتل تطغى على الكتاب.

ويري أسعد أنه يلتزم الموضوعية، لكن هذا لا يمنعه من أن يدور مع الحق، وينحاز إنسانيا لهذا الطرف أو ذاك، الأهم أن يكون الانحياز مبنيا على قيم أخلاقية، وليس على ميول وعواطف فقط.

لذلك يرى أن الموضوعية تفرض عليك أن تذكر ما يعاكس رأيك، وإن سجلت رأيك، كما يشير إلى أهمية إيمان وصدق الصحفي بما يقدم، وعدم استخفافه بعقول الناس، ولذا يؤكد على ضرورة ألا يتجاوز الصحفي الواقع أو أن يضيف شيئا ليس موجودا.

وبحسب أسعد؛ فإنك حين تدافع عن الآخرين الذين يختلفون معك، فأنت تدافع عن نفسك وعن إنسانيتك، الأهم هو أن تبقى علي مبادئك مهما كان الثمن، ولا يندم المرء ما لم يخن نفسه أو ضميره.

المهمة العظمي للإنسان في الحياة هي أن يظل إنسانا، وأن يبقى قلبه حيا مهما شاهدا على المآسي، ولا يرى أسعد أي تناقض بين أن يكون الإنسان منتميا إلى هويته، وفي الوقت نفسه منفتحا على الآخر ويتعامل معه من منطلق إنساني.

لا تدع الحكاية تمر

خلال تغطية أسعد للحروب، كان كثيرا ما يسأل نفسه عن جدوى ما يفعله، والناس كانوا يقولون له نحن نموت وأنت تاخذ أموال من تصوير مآسينا، لكن أسعد لم يكن من النوع الذي يتعامل مع الحدث كعمل، أو يتعاطف بشكل بارد.

لذا فكر في ترك الصحافة والعمل في الإغاثة، وسأل نفسه، هل أحمل أكياس الطحين أم أحمل الكاميرا؟ لكنه شعر أن ما يقوم به هو أكبر مساعدة يمكن أن يساعد بها، أن يوثق اللحظات التاريخية، ويساعد المظلوم ويفضح الظالم من خلال ما سجله من كلمة وصورة، يقول أسعد:

«التوثيق هو التاريخ، وبقدر ما نصيب فيه نقلل من تزوير التاريخ، التوثيق يا سادة هو ذاكرة الوطن التي لا يدركها النسيان، هو حلقة الوصل بين مستقبل الوطن وحاضره وماضيه، هو الشاهد الحي على نضال المناضلين، أفرادًا وجماعات ومؤسسات؛ ولذا فإن ذاكرتنا هي الهدف الأول لعدونا؛ لأنها توثق لحقوقنا، وأن الأرض لنا، وأن الأسماء لنا، وأن النقش لنا».

لا يعتبر أسعد الصحافة مهنة مثل كل المهن، إذا يؤمن بقدسيتها، ويرى أن لها دورًا مهمًا في التوثيق وحفظ الذاكرة الجمعية، بحسب أسعد، فالتوثيق واجب أخلاقي قريب من الفريضة، ولذلك يوصي بسرد وتوثيق حكايات المظلومين والشهداء، وتوثيق الإخفاقات والنجاحات، الأبطال والخونة، ليس المطلوب أن نوثق لحظات الفرح فقط، بل أيضا لحظات الألم، لأنها لحظات الدروس.

كما ينتقد أسعد وجهة النظر التي ترى بأن على الناس ترك الحديث عن الآلام ونسيان الجرائم والمآسي، وألا يتكلم أحد عنها كي لا ترث الأجيال القادمة هذا الغضب وتسعى للثأر.

برأى أسعد فإن هذا الأمر هو دعوة مفتوحة لكل مجرمي العالم أن يرتكبوا ما بدا لهم من جرائم، ولذلك علينا ألا ننسى، وإذا لم يكن بوسعنا أن ننتصر في هذه المرحلة، فعلى الأقل نورث الوثائق والحقائق إلى الأجيال القادمة، حتى يأتي زمن ينتقم فيه جيل جديد من الطغاة والظالمين.

يضع أسعد الحكاية في موضع أكبر من مجرد كونها قصة عابرة مسلية، إذا يرى بأن الحكاية ليست فقط أقرب طريق إلى الآخر، وأقرب طريق للوصول إلى وجدان الناس، بل أيضا ملجأ يحتمي فيه الإنسان والمجتمع لتوثيق الأحداث، وحفظ التاريخ والحقائق والدين من النسيان والاندثار، وبالتالي فالحكاية بمثابة مرآة للمجتمع، وضمير للشعب بكل فئاته.

الحكاية توثق وتبقى خالدة مع الناس، ولذلك يعتبر أسعد أن الحكاية هي بندقية أخرى، بندقية لا تصيب ولا تقتل إلا الباطل المحتل والفاسد الحاكم، بندقية تحمي ذاكرة الوطن إلى من يأتي محملاً بكل أسباب النصر.

وعلى كل منا أن يساهم بدوره في التوثيق قدر استطاعته، وألا يستصغر هذا الفعل مهما كان بسيطا، لأنك تفعل الشيء ولا تدرك قيمته في وقته، وإنما تكتشف القيمة بعد ذلك، يقول أسعد:

«قم إلى حروفك وعدستك، وثق ثورتك، الإخفاقات والنجاحات، الأبطال والخونة، الزعماء والبسطاء، صعِّبوا عليهم تزوير التاريخ، أغرقوهم بالحقائق، دعوا أولادكم وأحفادكم يرددون حكاياتكم، لا تستصغروا فعلكم، لا تحتقروا معروف وثيقة، وكما يمكن أن تنجينا من النار شق تمرة، يمكن أن ينجينا شق عدسة وشق كلمة».

يؤكد أسعد علي انتصار الشعوب التى ضحت وقاومت، ويرى أن الشهداء دومًا ينتصرون في آخر الحكاية ولو بعد حين، ويستشهد بواقعة إبادة بلدة بأكملها في كوسوفو، حيث لم يتردد أهلها في المقاومة رغم علمهم بنهايتهم المأساوية، لكن استشهادهم كان سببًا فى استقلال كوسوفو، ولم يموتوا هباء.

وختامًا؛ لم يكن أسعد صحفيا بقدر ما كان صاحب رسالة، جمع بين الحقيقة والإخلاص، وتحرك من منطق العشق، ولذا يريد أن يعمل حتى آخر لحظة في حياته.

وفي سؤال له: هل تخشى الطغاة؟ أجاب: **«أخشى التوقف عن الكتابة ضد الطغاة».**

ويروي العم أسعد لنا أمنيته الأخيرة، فيقول: **«أمنيتي الأخيرة أن أفعل فعل النسر، فإنه إذا ما شعر بدنو أجله حلَّق عاليا إلى أن يأتيه الأجل محلقا».**

كرة القدم والسياسة:
هل يمكن فصلهما حقا؟

كرة القدم والسياسة: هل يمكن فصلهما حقا؟

عمر إبراهيم

كاتب مصري
مهتم بمجال الرياضة وكرة القدم

ربما قرأت مرارا وتكرارا في عالم كرة القدم عبارة «لا للعنصرية» والتي تعني أن الرياضة لا ترجح كفة فريق على فريق، أو متنافس على منافسه، كلنا سواسية، لكن في الحقيقة، لعبة كرة القدم لم تقم أبدا على هذا المصطلح، هي فقط تحاول التنصل منه بشتى الطرق، وللتاريخ لسان يحكي به ويصف لنا ما حدث.

نعم؛ كرة القدم ولدت نفسها بعدة هيئات مختلفة في كل دولة، ففي إسبانيا صنعت لنفسها الهيكل السياسي، والذي يستمر إلى يومنا هذا بين ريال مدريد وبرشلونة، الصراع بين الحكومة في مدريد والقومية في كتالونيا.

وقامت على التنافس الطائفي في اسكتلندا، بين سيلتيك ورينجرز، بين أنصار الطائفة الكاثوليكية والطائفة البروتستانتية، كما قامت على الصراع الطبقي في الأرجنتين، بين بوكا جونيورز وريفربليت، بين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء.

لا تسير وحدك في غلاسكو

لا أحد في غلاسكو يعرف من هو حقا، جميعهم يعرفون شيئا ثابتا: نحن لسنا أهل نفس البلد.

في أزمنة مضت، وإلى يومنا هذا، يعتقد مشجعو رينجرز أنهم الشعب المختار في اسكتلندا، وأن البروتستانتية ستنتصر لا محالة على القومية الكاثوليكية، ويعتقدون أن نادي سيلتيك هو أيرلندي لا يحب بريطانيا لأن الخلاف الديني والطائفي بينهما يفوق حدته العادية.

ديربي الشركة القديمة أو ما يعرف هناك باسم **Old Firm** هو المصطلح الذي يُطلق على واحد من أخطر الديربيات في عالم كرة القدم، والتي حين يشارك فيها أي لاعب جديد لأول مرة، فإنهم يخبرونه بطقوس المباراة وما يستوجب عليه فعله خلالها، لقد سجلت غلاسكو حالات لا تُعد ولا تُحصى من العنف الطائفي خلال مباريات سيلتيك ورينجرز على مدار تاريخها الطويل، حتى حالات القتل التي سُجلت إثر التعصب الطائفي الكبير الذي وجدوه في مدينتهم.

كانت حجة إنشاء نادي رينجرز أن يولد للمجتمع الاسكتلندي البروتستانتي التقليدي فريق يُعبر عنه، خاصة إذا كانت فكرة إنشاء سيلتيك قائمة في الأساس على دعم ومساعدة الفقراء المهاجرين من أيرلندا إلى اسكتلندا على يد الراهب أندرو كيرينز.

من يومها؛ تحول الأمر إلى صراع مذهبي بالكامل، ألم تلحظ أبدا أن مباريات سيلتيك ورينجرز عادة ما تُلعب في الظهيرة؟ ربما لأن هذا التوقيت بالتحديد تكون الحياة فيه أجمل وأكثر هدوء من تلك التي تقام في ساعات المساء.

وربما لأن الدولة تُحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تمنع اختلاط الأعراق، بين مشجعي رينجرز الذين يهتفون «نحن الشعب المختار» **We are the people**، والذي يقتبسونه من الكتاب المقدس،

وبين هتاف نفس الجماهير الذي يوحي بالتطرف: «نحن نكره الكاثوليك ونقتلهم على سبيل المرح»، وبخصوص هذا الصدد؛ فإنهم يقصدون جماهير سيلتيك بالفعل. ولنفس الأسباب، الأسباب القومية بالطبع، فإن جماهير سيلتيك تحمل أعلام وشعارات فلسطين بشكل دائم، لا لشيء أكثر من أنهم يعرفون حقا ما يعنيه شعار «الأقلية» والمستضعفون في هذا العالم، ولأن جماهير سيلتيك نفسها لا تعتبر نفسها اسكتلندية خالصة، ولا حتى يمكن أن تخضع للحكم البريطاني بأي حال من الأحوال.

الكلاسيكو كما لم تعرفه من قبل

ربما أراد برشلونة أن ينفصل عن إسبانيا دائما لأنه لم يشعر أبدا بإسبانيته تلك، بل كان الفريق الوحيد الذي حاول بشتى الطرق أن يقف في وجه الديكتاتورية الملكية في مدريد.

لأعوام؛ ظل النادي يُحاول أن يتحدث بلسان قوميته الكتالونية، ويغير الملاعب لتسع تزايد شعبيته وإيمان أهل كتالونيا بضرورة تواجد كيان يقف مُعاديا للديكتاتورية التي تعايشوا معها في إسبانيا.

كان الجنرال فرانكو بمثابة سيف على أعناقهم، بين الرئيس الذي مات مُنتحرا خوان غامبر مؤسس النادي، وبين الرئيس الذي قتلته الشرطة الإسبانية التابعة لفرانكو جوزيب سانيول.

بين فريق لا يستطيع المحافظة على نجومه، وفريق يهرب النجوم منه في جولته الودية في أمريكا خوفا من عودتهم معه إلى المصير الذي ينتظرهم ويعرفونه، وظل برشلونة يحاول أن يقف عند نقطة تلاقي مع كل الأحداث التي تلحق به، حتى أتت الليلة التي أثبت فيها يوهان كرويف أن كرة القدم هي داعم قوي لأي موقف سياسي.

يوم أن حقق برشلونة انتصاره التاريخي في عام 1974 على ريال مدريد بخماسية نظيفة في قلب البيرنابيو، يوم أن كانت القومية الكتالونية تعيش عز أمجادها، لا لشيء أكثر من أن المباراة كانت تعني انتصارين كبيرين على مدريد وحكومتها: فوز في الكلاسيكو، وهلاك الديكتاتور فرانكو الذي كان يُصارع الموت في ذلك الوقت.

كما وجدوا في ميسي المُخلص الذي لطالما كانوا يبحثون عنه، لدرجة أن أحد الساسة الكتلان غرد عبر حسابه ذات مرة، حينما كان ميسي لاعبا في برشلونة، بأن ميسي هو الانتصار الأعظم الذي حققته القومية الكتالونية على الحكومة في مدريد طوال تاريخ ذلك الصراع.

ولم يكن ميسي هو المُخلص الذي

تمنته القومية أبدا، ربما لأنه وُلد في الأرجنتين، حتى وإن عاش أكثر من نصف عمره في مدينة برشلونة، وتعامل مع أهل مقاطعة كتالونيا، وارتدى ألوان الفريق أكثر من ملابسه العادية.

في عام 2017؛ كانت مباراة برشلونة ولاس بالماس على الأبواب، إنها الليلة التي يحضر فيها المشجعون إلى ملعب الكامب نو لمشاهدة فريق برشلونة ككل، وميسي بشكل خاص، لكن ما قبلها جعل لحظة الوصول إليها أقرب إلى المستحيل.

إنه الاستفتاء الحقيقي، لأول مرة يمكن للكتلان أن يعبروا عن أنفسهم ويختاروا بين أن يكونوا إسبان أو كتلان للأبد، إما الآن أو للأبد كما يُقال، وفي الخارج كانت الشرطة الإسبانية تقف رادعة ومتوعدة، وتعتقل كل من يتخطى مترا لا يُسمح له بتخطيه.

لم تكن المسافة بعيدة تماما عن الكامب نو، وسمع ميسي أو قرأ أو شاهد ما يحدث خارج منزله، وكان الناس حينها، هناك في كتالونيا، يتمنون أن يتحدث ميسي، يتحدث ولو لمرة في حياته، يتحدث لينقذهم مما يحدث لهم.

أن يتحدث ميسي ويُدافع عن قضيتهم الكتالونية، ويُعادي الحكومة في إسبانيا وينتصر للقومية، تمنوا فعلا لو أن ميسي استطاع بلسانه أن يُغير شيئا، مثلما فعل كثيرا بقدمه، لكنه لم يفعل ولن يفعل، لم يتدخل ميسي أبدا في هذا الأمر، لأنه يعرف عواقب تدخله، ولأن الرياضي لا يحق له أن يُعبر عن ميوله السياسية. لكن هناك جيرارد بيكيه، الذي يحبه جمهور كتالونيا ويعتبرونه رمزا للقومية كلاعب وكشخص مؤثر استغل شهرته لدعم قضاياهم، وهو الرجل الذي وقف يُصرح للصحافة باكيا، وقال إنه لم يرغب في لعب هذه المباراة بالتحديد لأن من يُشاركونه نفس الدم يُقتلون على بُعد أمتار منها.

> جماهير سيلتيك تحمل أعلام وشعارات فلسطين بشكل دائم، لا لشيء أكثر من أنهم يعرفون حقا ما يعنيه شعار «الأقلية» والمستضعفون في هذا العالم، ولأن جماهير سيلتيك نفسها لا تعتبر نفسها اسكتلندية خالصة، ولا حتى يمكن أن تخضع للحكم البريطاني بأي حال من الأحوال.

ديربي الأغنياء والفقراء

لا يوجد مشجع واحد على وجه الكرة الأرضية يتقبل الهزيمة أمام غريمه التقليدي، فما بالك إن أتت الهزيمة في نهائي أهم بطولة قارية.

نعم، في عام 2018، ولأول مرة، كان على بوكا جونيورز وريفربليت أن يحتكما للقدر ليُثبت أيهما أحق بالسلطة الكروية على الأرجنتين بشكل خاص، وقارة أمريكا الجنوبية بشكل عام، حينما كان حي «لا بوكا» يضم الأخوين، لم يقبل أحدهما أن يُقارن بأخيه، من وجهة نظر ريفربليت، لقد كانت الحياة قائمة على الأموال فقط، فريق المليونيرات كما أسموهم هناك، هو الفريق الذي يعبر عن الطبقة الثرية الأرجنتينية.

أما البوكا، فهو الفريق الذي يُمثل طبقة الفقراء، ولهذه الأسباب وأكثر، لم يكن عام 2018 هو الأفضل للفقراء، بعد عدة نزالات جمعت الفريقين في كل مكان في الأرجنتين، وبعد فصل جمهور كل فريق عن الفريق الآخر، وبعد أن قامت جماهير بوكا بجنازة رسمية يوم أن هبط ريفربليت للدرجة الأولى الأرجنتينية في عام 2011، وبعد أن أطلقت جماهير البوكا على لاعبي ريفربليت رذاذ الفلفل في نفس البطولة القارية في عام 2015؛ كانت مدريد هي الوحيدة التي تستطيع أن تختار أيهما يكفل الكأس الذهبية.

قبل أن يسافرا إلى مدريد، كان ماوريسيو ماكري، وهو رئيس الأرجنتين آنذاك، وهو رئيس بوكا جونيورز الأسبق بالمناسبة، قلقا للغاية بشأن ما قد يحدث في البلاد بعد أن يعودا إليها، قال ماكري: إن الخاسر سيحتاج إلى أكثر من 20 عاما للتعافي من آثار الهزيمة.

في جانب البوكا؛ كان أعضاء ألتراس بوكا مندهشين للغاية مما يدور في أذهان وعقول الناس، لقد طلق بعض المشجعين زوجاتهم لأنهن دخلن في نقاش حاد بشأن تعصبهم للبوكا، وهذه القصة حقيقية لا تزييف فيها، والبعض الآخر قدم استقالته من وظائفه لأن المدراء لم يوافقوا على طلب الإجازة للسفر إلى مدريد لحضور المباراة النهائية.

والبعض باع سياراته لتوفير ثمن التذكرة والليلة التي سيقضيها في مدريد لمشاهدة النهائي، ولم يكن أي واحد منهم يتوقع، جونزالو مارتينيز يركض نحو مرماهم في الدقيقة 122، أندرادا حارسهم عند منطقة جزاء الريفر، ريفربليت يحسم اللقب لصالحه بنتيجة 3-1، ولم يكن جونزالو يعرف أن هذا الهدف بالتحديد سيُجبر جماهير بوكا على تلاشي تلك الليلة للأبد، وأنهم، جميعا، بكوا كثيرا ليلتها، حتى الرئيس الأرجنتيني الذي كان يعرف مرارة الأمر مسبقا.

رسائل المنتخب المغربي في مونديال قطر

رسائل المنتخب المغربي في مونديال قطر

محمد طيفوري

أكاديمي وكاتب مغربي

كانت كرة القدم مجرد لعبة للاستمتاع والترويح عن النفوس، قبل أن تحاصرها السياسة من كل جانب، وبدا الأمر جليا في بطولة كأس العالم 2022 بدولة قطر، بحرص طائفة من الغربيين على افتعال معارك هامشية، للتغطية على حسن الإعداد وروعة الإنجاز وبهاء التنظيم، والنجاح في إضفاء لمسة عربية خاصة على هذه النسخة من المونديال.

فصيل من أنصار مركزية العقل الغربي غير مستعد للإقرار أو الاعتراف بأي تفوق أو نجاح بعيدا عنهم؛ فهم الأصل والمركز وبقية دول العالم مجرد توابع؛ فالنظرة الدونية لبقية الشعوب، لاسيما الشعوب العربية، حقيقة كامنة في الوعي الجمعي الغربي.

المستحيل ليس مغربيا

حاول المنتخب الوطني المغربي لكرة القدم في هذه الدورة مجاراة دولة قطر لكسر الأنفة الغربية، وعلى غرار ما قامت به الدوحة حين جعلت حلم المونديال حقيقة على أرض عربية، سعى الفريق المغربي وراء انتصارات، دخل بها تاريخ كرة القدم العالمية.

بعد التعادل مع منتخب كرواتيا؛ وصيف بطل العالم عن نسخة مونديال روسيا 2018، سحَق منتخب أسود الأطلس؛ بلجيكا صاحبة المركز الثالث عالميا، وفي دور الثمن نهائي أخرج المنتخب الإسباني؛ بطل أوروبا والعالم عام 2010 وصاحب التصنيف السابع عالميا، ثم المنتخب البرتغالي، بطل أوروبا لعام 2016، وكلاهما كانا مرشحين بقوة للفوز بهذه البطولة.

هكذا نجحت كتيبة المدرب وليد الركراكي في إسقاط فزاعة التفوق الغربي، ووضع حد لعقدة النقص العربي تجاه الدول الأوروبية، ودفعت خبراء وعشاق الساحرة المستديرة، بما في ذلك قادة الفيفا أنفسهم، إلى مراجعة حساباتهم وتوقعاتهم.

بعدما نجح أسود الأطلس في كتابة صفحة من تاريخ جديد في سجل البطولة، بكونهم أول منتخب عربي وإفريقي يصل إلى دور نصف النهائي في تاريخ كأس العالم، ليسقط في مباراته أمام المنتخب الفرنسي بطل العالم للنسخة الماضية، الذي يتكون في معظمه من لاعبين أفارقة مهاجرين أو فرنسيين من أصول عربية، ما يثير التساؤل حول حقيقة إنجازات وأمجاد الأوروبيين في الرياضة وغيرها؟

في الحضور والأداء المتميز للمنتخب المغربي -ممثل العرب والأفارقة- بمونديال قطر، رغم السياق الاستثنائي الذي رافق الاستعدادات، فاستكمال بناء الفريق الوطني، وعودة لاعبين كبار أمثال حكيم زياش إلى تشكيلة الفريق، أشياء حدَثت عقب تولي المغربي وليد الركراكي مهمة القيادة والإشراف، على بعد شهرين فقط من بداية المنافسات، دروس تتعدى حدود الرياضة نحو أشياء أخرى، لتؤكد من جديد صحة مقولة الأديب إدواردو غاليانو بأن «كرة القدم هي مرآة الحياة».

رسائل داخل الملعب وخارجه

ما أكثر الرسائل التي حملها التفوق المغربي، بالنسبة إلى صناع القرار في المملكة المغربية، وتبقى أهمها على الإطلاق التأكيد على ضرورة الثقة في الكفاءات الوطنية، فما حدث في الرياضة قابل للتعميم في السياسة والاقتصاد وباقي المجالات.

بعد الإنجاز القاري للمدرب الوطني بادو الزاكي الذي بلغ رفقة المنتخب نهائي كأس إفريقيا بتونس عام 2004، ها هو ذا الناخب الوطني الشاب وليد الركراكي، يعيد كتابة أمجاد الكرة المغربية عالميا، بروح مرحة لا وصف لها سوى كونها مغربية خالصة، في ظرف قياسي، وبطاقم مغربي مقلص إلى حدوده الدنيا، مع ما يعنيه ذلك من حكامة وترشيد للنفقات.

هكذا إذن يثبت الرجل أن الإيمان بالطاقات الوطنية من شأنه أن يكون المفتاح السحري لمشاكل البلد، متى مُنِحت لها الثقة المطلقة، وحظيت بظروف اشتغال لائقة، ولا شك أن الحصاد سيكون وافرا، فتلك الثقة الممزوجة بحس الانتماء تفجر في الإنسان كل طاقاته الكامنة، لدرجة يسقط فيها كلمة مستحيل من قاموسه، ولنا في كافة المباريات بلا استثناء الدليل القاطع على هذه الحقيقة.

علاقة بموضوع الوطنية؛ نشير إلى وصف الصحافة الإسبانية المنتخب المغربي، قبيل مواجهة الثمن، بفريق الأمم المتحدة، على اعتبار أن نصف لاعبي المنتخب ولدوا خارج المغرب، وبعضهم يحمل جنسيات أخرى (فرنسية، إيطالية، هولندية، إسبانية، كندية).

صحيح أن نصف المنتخب من أبناء مغاربة المهجر، بما في ذلك المدرب نفسه، لكنهم ملتزمون عاطفيا تجاه وطنهم الأم، فأغلب اللاعبين تلقوا عروضا للمشاركة مع منتخبات بلدان الولادة أو المنشأ، إلا

إنهم فضلوا الدفاع عن ألوان القميص المغربي، ما يعني أن المغربي يبقى وفيا لأصوله ومتشبثا بهويته، رغم إغراءات اللعب والانتماء إلى منتخبات بلدان المجهر.

رسالة أخرى تتخذ شكل صورة، تتكرر عند نهاية كل مباراة كروية، تظهر العلاقة المتميزة بين لاعبي المنتخب ووالديهم؛ لاسيما الأمهات، حيث توجه نجوم المنتخب المغربي نحو الجماهير بحثا عن أمهاتهم من أجل عناق حار، وقُبلة على رأس الأم، بعد كل انتصار، وفي هذا أكثر من إشارة إلى المجتمعات الغربية، حيث قيم الفردانية والتفكك الأسري، وقبل ذلك إلى فئات عريضة من الناشئة المغربية التي تعتبر هؤلاء اللاعبين رموزا ونماذج تقتدي بها.

ينعش هذا المشهد في الذهن ثقافة كامنة في المخيال الشعبي المغربي مفادها اقتران الفلاح في الحياة برضى الوالدين، خاصة وأن معتنقيها شباب ولدوا وترعرعوا في دول أوروبية، حيث الأنانية المفرطة، والخلاص الفردي دون أي اعتراف بجميل الأسرة.

> **“فصيل من أنصار مركزية العقل الغربي غير مستعدين للإقرار أو الاعتراف بأي تفوق أو نجاح بعيدا عنهم؛ فهم الأصل والمركز وبقية دول العالم مجرد توابع؛ فالنظرة الدونية لبقية الشعوب، لا سيما الشعوب العربية، حقيقة كامنة في الوعي الجمعي الغربي.”**

رسائل الوحدة العربية وقضية فلسطين

تجاوزت رسائل الفريق الوطني حدود المغرب نحو المنطقة العربية بأسرها، فالتألق المغربي خلق البهجة والسرور لدى الشعوب العربية من نواكشوط حتى مسقط، ونجح في مباريات معدودة على رؤوس الأصابع في تحقيق ما عجزت عنه القمم العربية منذ عام 1946.

ما يحمل أكثر من رسالة إلى القادة والزعماء العرب، مفادها أن حرص سياساتهم القطرية على تذكية الانتماء المحلي، لا يمكن أن يلغي قطعا انتماء آخر عابرا للحدود، من المحيط إلى الخليج.

فالإنجاز المغربي، كشف عن وعي الجمهور العربي، بحسه الفطري، بزيف الخلافات والصراعات البينية بين الأقطار العربية، وأظهر بشكل بيّن الفارق بين الخطابين الرسمي والشعبي في المنطقة التي اهتزت فرحا وانتشاء بتألق الفريق المغربي.

حتى في الجزائر، حيث القطيعة الدبلوماسية واستمرار إغلاق الحدود بين الجارتين الشقيقتين، خرجت الجماهير إلى الشوارع في كبرى المدن الجزائرية للاحتفال بأداء المنتخب المغربي، باعتباره الممثل الوحيد عن العرب والأفارقة معا في الأدوار النهائية لهذه البطولة، غير مبالية بالمناوشات المتبادلة بين النظامين الجزائري والمغربي.

ويبقى التوشح بالعلم الفلسطيني، في أعقاب كل فوز، أقوى الرسائل المباشرة إلى صناع القرار في العواصم

> ما أكثر الرسائل التي حملها التفوق المغربي، بالنسبة إلى صناع القرار في المملكة المغربية، وتبقى أهمها على الإطلاق التأكيد على ضرورة الثقة في الكفاءات الوطنية، فما حدث في الرياضة قابل للتعميم في السياسة والاقتصاد وباقي المجالات.

العربية التي التحقت بقطار التطبيع مع الكيان الصهيوني، وحتى تلك التي تفكر في ركوب القطار قريبا.

في قرار الفريق الوطني المغربي رفع الراية الفلسطينية، بعد المباراة الاستثنائية أمام إسبانيا، تأكيد على مركزية القضية الفلسطينية أولا، ودليل قاطع على أن نجاح مسلسل التطبيع يبقى حكرا على المستوى الرسمي فقط، أما شعوب المنطقة بأسرها فتعتبر التطبيع خيانة، ما يعني استحالة التفريط في واحدة من أعدل القضايا الإنسانية على الأرض.

يرى الكثيرون أن كرة القدم في نهاية المطاف مجرد لعبة ومنافسة رياضية، فلا حاجة لتحميل الصراع داخل المستطيل الأخضر أكثر مما يستحق، قول فيه نصيب من الصحة ظاهريا فقط، أما في العمق فرياضة كرة القدم تعدت هذه الحدود لتصبح ميزان حرارة لقياس منسوب الضغط والانسداد داخل المجتمعات، ولنا في ظاهرة الألتراس أكثر من دليل، ما يعني في المحصلة أن الرسائل طي الحديث ثابتة، ويبقى الشك فقط في بلوغها العناوين المرسلة إليها.

سُبل

subulmagazine.com
subul.magazine@gmail.com
facebook: subul.magazine